سيمون بفايفر

مذكرات

أو لمحة تاريخية عن الجزائر

تقديم وتعريب

الدكتور أبو العيد دودو

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

46

C. D. E. S.

T 1 39. 24. 00.

سيمون بفايفر

مذكرات

أو لمحة تاريخية عن الجزائر

تقديم وتعريب

الدكتور أبو العيد دودو

كتب عربية ومترجمة

https://abbassa.wordpress.com

رقم النشر 73 / 325
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ©
الجزائر 1974

مقدمة

- 1 -

عاش سيمون بفايفر في مدينة الجزائر حوالي خمس سنوات ، قضاها كلها في قصر الخزناجي افندي ، حيث اشتغل سنتين في مطبخه ، يقوم بمختلف الاعمال المنزلية ، ثم أصبح طبيبه الخاص ، فاتاح له هذا المركز الجديد ان يطلع على كل ما يجري في المدينة ونواحيها ، وذلك بفضل علاقاته المباشرة بعدد من الشخصيات من داخل القصر وخارجه . ومن هنا جاء كتابه حافلا بالوقائع والاحداث التاريخية ، التي يتعذر العثور عليها في مصدر آخر . لقد حاول الكثير ممن ارخوا للحملة الفرنسية ان يتحدثوا عن أوضاع الجزائر الداخلية ، ولكن ما كتبوه عنها لا يتعدى الملاحظات العابرة ، التي تبدو تافهة اذا قورنت بالصورة التي يقدمها لنا بفايفر . هذا بغض النظر عن خلوها من النظرة الموضوعية في كثير من الاحيان .

ولا اظنني مبالغا ان اضفت الى ذلك شيئا آخر ، وهو ان بفايفر يفضل حتى من عاصروا الاحداث التي يرويها ، وتحدثوا عنها في كتاباتهم . فالتفاصيل التي ذكرها لا نجدها حتى عند حمدان خوجة ، وهو معاصر لبفايفر وشاهد عيان مثله . فقد اكتفى حمدان خوجة بالاشارة الى بعض الوقائع دون الاهتمام بتفاصلها ، في حين تعرض لها بفايفر وأسهب في الحديث عنها ، ولم يخف شيئا مما وصل الى سمعه عنها . فكتاب المرآة لا يقدم مثلا وصفا مفصلا لا للمعركة البحرية ، التي وقعت أثناء الحصار ولا لما حدث بعد ذلك في شرق مدينة الجزائر ، مما نجده مفصلا في كتاب بفايفر . أما ما كتبه أحمد أفندي فهو لا يتعدى بضع صفحات ، فيها أشارات خفيفة الى الاحداث التي وقعت آنذاك . وقد وصف هذا المؤلف نفسه بانه جزائري ، ولعله جزائري منشأ ، ولكنه لم يكن جزائريا روحا ، فقد انهى رسالته عن احتلال الجزائر بعبارة غامضة في الترجمة العربية ، ولكنها واضحة في الترجمة الفرنسية وفي النص التركي كل الوضوح ، وتعني (انظر المجلة الآسيوية ، عدد 20 ، ص 329) أن أمر الجزائر قد انتهى ، ولكن هذا شيء غير مهم . المهم أن يعيش سلطاننا ، فان له حيثما نظر منطقة أكثر ازدهارا وثباتا من الجزائر . وهذا الاعتراف يفسر لماذا تخلى الاتراك عن الجزائر بسهولة !

فمذكرات بفايفر اذن وثيقة تاريخية خطيرة ، لا يجوز باي حال من الاحوال اهمالها عند اعادة كتابة تاريخ الجزائر . وهذا ما دفعني الى نقلها الى لغتنا الوطنية ، فالتاريخ فى نظري لا يمكن ان يكتب الا بلغة البلاد . وذلك ما يحدث فى جميع انحاء العالم ، فبهذه الطريقة فقط نستطيع ان نتجنب الكثير من التشويه والتحريف فى الاسماء والمسميات . وينبغي ان اعيد هنا ما قلته فى مكان آخر ، وهو اني لست مؤرخا ، ولكني مؤمن بفائدة هذه النصوص والوثائق بالنسبة لكل منا ، وخاصة بالنسبة للمؤرخين الجزائريين . فعلي انا ان اترجم هذه النصوص واقدمها لهم ، وعليهم هم ان يدرسوها ويناقشوها ويقارنوها بغيرها من النصوص فى اللغات الاخرى ليصلوا الى الحقائق التاريخية الثابتة .

— 2 —

ولد سيمون بفايفر بمنطقة راينهيسن Rheinhessen حوالي 1810 ، وفقد والديه عندما بلغ السادسة من عمره ، فكفله بعض اقاربه وارسلوه الى المدرسة . وفى سن الثالثة عشرة شعر بميل شديد الى فن الجراحة ، فاقبل على دراسته بحيوية ونشاط ، واظهر فيها تقدما ملحوظا . ولما كان يعيش وحيدا بعيدا عن اخوته ، فانه لم يعد يجد ما يشده الى وطنه ، ولهذا قرر ان يبحث عن سعادته خارج بلاده ، فسافر الى هولاندا واثقا من انه سيجد فيها عددا من معارفه . ولم تكن سنه تتجاوز الخامسة عشرة عندما وصل الى مدينة امستردام ، فاستقبله فيها احد معارفه استقبالا حسنا ، وارسله الى امير البحر . فحقق هذا رغبته ، اعجابا بشبابه الغض ، وادخله مدرسة بحرية راسية دائما ، وهي نوع من الثكنات البحرية ، التي يلتحق بها عدد من التلاميذ البحريين ، والملاحين ، والضباط والاطباء من اجل التعود على حياة البحر .

وفى شهر ديسمبر 1824 صـدرت الاوامر بمغادرة الميناء ، فاتجهت السفينة ((ديانا)) ، التي كان على ظهرها بفايفر ورفاقه ، الى البحر الابيض المتوسط لحماية السفن التجارية من هجمات القراصنة . وعندما كانت فى طريقها اليه داهمتها عاصفة رهيبة ، أوشكت ان تغرقها ، واجتازت اخيرا جبل طارق ، فمرت بعدة موانيء اسبانية وفرنسية وايطالية وتوقفت فيها ، ثم توجهت الى جزيرة مالطة ، ومنها الى مدينة ازمير . وحين بدات السفينة تقترب من هذه المدينة شعر بفايفر بحزن ثقيل يملا صدره ، كما لو انه عرف مسبقا ما ينتظره فى نواحي ازمير . وبعد اقامة قصيرة بها اقلعت السفينة مرة أخرى ، واتجهت الى ميناء أورله ، التي لا تبعد كثيرا عن مدينة ازمير . وعند الوصول اليها نزل بفايفر مع مرضاه الى البر ، وكان يقضي معظم وقته فى معالجتهم والعناية بهم .

وفى شهر جويلية 1925 خرج بفايفر ذات مساء للنزهة فى غابة صغيرة ، وكان برفقته عدد من معارفه . وما كادوا يقطعون مسافة فيها ، حتى احاطت بهم فرقة مسلحة من الانكشاريين ، وراحت تعاملهم بقسوة ، ونهبت كل ما كان معهم ، وكادت تتركهم عراة . وتصدى لهم نمساوي من رفاق بفايفر وطعن احدهم بخنجر كان معه ، فقتله انكشاري آخر . أما بفايفر نفسه ، الذي لم يكن معه سلاح اطلاقا ، فقد وجه اليه تركي ضاحكا ضربة بسيفه ، فاصابه فى خده الايسر ، ولكنه لم يلحق به جرحا عميقا لبعده عنه . وقاد الانكشاريون بفايفر ورفاقه ، دون ان يدعوا له الوقت لمعالجة جرحه ، وساروا بهم فى طرق ملتوية نحو مدينة ازمير ، فوصلوها فى منتصف الليل . وهناك اضافوا اليهم عـددا من العبيد اليونانيين ، وصعدوا بهم فوق باخرة جزائرية ، كانت راسية بالميناء ، فاقلعت بهم قبل طلوع الشمس .

وكانت الباخرة سفينة شراعية ذات صاريتين ، مزدوة بستة مدافع ، لا تتجاوز حمولتها مائة وثمانين رجلا . وكان قائدها مارقا انجليزيا ، يدعى عمر ، اظهر عطفا كبيرا على الاسرى ، وابدى اسفه لما حدث لهم . وكان هذا المارق يتكلم الانجليزية ، والايطالية ، والعربية ، والتركية ، وقليلا من الهولاندية . وكان كثيرا ما يتحدث مع بفايفر بحرية والفة تامة ، ويسأله عن تطور العلوم والفنون فى أوربا . وكان من جهته يحدث بفايفر عن بعض العادات والتقاليد الجزائرية ، فاستفاد من احاديثه فيما بعد استفادة كبيرة . وكان القائد متزوجا فى الجزائر ، وله عدد من الاولاد ، كان يتحدث عنهم فى حنان أبوي . ولم يكن عمر يشير الى حياته السابقة على الاطلاق ، ولكن تصرفاته كانت تدل على انه قد تلقى تربية حسنة . وكان ينصح بفايفر أحيانا بأن يفعل ما فعله هو ، فيتخلى عن دينه ليتخلص من العبودية ، غير ان بفايفر كان يلزم الصمت كلما تطرق المارق الانجليزي الى هذا الموضوع . ويعترف بفايفر بأن معاملته لهم كانت انسانية ، بحيث انه لم يحدث ما يدعو الى الالم والشكوى ، ولكنه لم يكن يخفي نفوره من اليونانيين لسبب من الاسباب .

ووصلت السفينة بعد خمسة وعشرين يوما الى الجزائر ، فقدر لبفايفر ان يلتحق بقصر الخزناجي ويعمل طاهيا فى مطبخه . وجاء الوزير ذات يوم الى المطبخ ليتفقد عبيده ، فعرف ما كان قد تعلمه الشاب الالماني قبل وقـوعه فى الاسر ومجيئه الى الجزائر . وبعد بضعـة أسابيع مرض الخزناجي ، فأرسل فى طلب بفايفر لمعالجته . ولما نجـح فى ذلك عينه طبيبه الخاص ، وبقي فى هذا المنصب الى ان اطلق سراحه واعاد اليه حريته قبل دخول الفرنسيين الى الجزائر بمدة قصيرة . واتصل بعد

ذلك بباي تيطري ، مصطفى بومرزاق ، بناء على دعوة وجهها اليه الباي ، واصبح خازنداره مدة اسبوعين . وحين عزم بو مرزاق على محاربة فرنسا ، قرر بفايفر أن يتخلى عن منصبه ويعود الى بلاده ، فترك الجزائر في 16 سبتمبر سنة 1830 ، ووصل الى المانيا بعد حوالي شهر .

وواصل بفايفر ، بعد عودته الى وطنه ، دراسة فن الجراحة ، الذي كان يميل اليه منذ صغره ، وكانت له فيه تجارب عديدة أيام اقـامته في الجزائر . ويبدو أن بفايفر كان في أثناء ذلك على اتصال بالعالم اللغوي الالمـــاني Fr. Schmitthenner (1796 – 1850) الذي وضع عددا من الكتب في اللغة والنحو المقارن . فقد طلب منه أن يكتب شيئا عن تجاربه في البلدان التي زارها خلال السنوات الست الماضية ، وخاصة ما يتعلق منها ، بالجزائر ليطلع عليها الجمهور . وعندما انتهى بفايفر من تاليف كتابه ، كتب شميتهينر مقدمة الكتاب ، فنوه بدقة ملاحظة بفايفر ، وموضوعيته ، وجدة المعلومات التي يقدمها عن الجزائر ، كما أشار الى أن الطالب الشاب سوف يقدم تجاربه في كتاب آخر بصورة أكثر تفصيلا ، وذلك بعد انتهائه من دراسته . ولكن بفايفر اختفى بعد كتابه والملحق الذي وضعه له ، فلم أجد له ذكرا في أي كتاب من كتب التراجم الالمانية . ولعله أنهى دراسته ومارس مهنته الطبية مواطنا عاديا الى أن وافاه اجله دون أن يضيف جديدا الى ما سبق أن دونه في كتابه وملحقه من وقائع واحداث .

– 3 –

صدر كتاب بفايفر « رحلاتي وسنوات أسري الخمس في الجزائر »
Meine Reisen und meine fuenfjaehrige Gefangenschaft in Algier
بمدينة Giessen في شهر جويلية سنة 1832 . وفي سنة 1833 أصدر بالمدينة نفسها ملحقا له بعنوان « وصف ولاية الجزائر وسكانها »
Beschreibung des Staates Algier nebst den Bewohnern desselben
ولم تتح لي الظروف بعد الاطلاع على هذا الملحق . ويبدو أن كتاب بفايفر لم ينل عند صدوره حظه من التقديم والتعريف في صحف ذلك العصر ومجلاته ، ولذلك لم يكتب له الانتشار والذيوع ، فبقيت معرفته مقصورة على الدوائر الخاصة في مدينة غيســن . فقد ظل الكتاب مجهولا بالنسبة للمؤرخين الفرنسيين أكثر من عشرين سنة ، اذ أنه لم يعرف الا في سنة 1854 ، وذلك عندما اكتشفه أحد العلماء الفرنسيين بمحض الصدفة ، وهو A. Michiels (1823 – 1892) ، فترجم أهم ما فيه في نظره ، ونشره في عدد ديسمبر من مجلة Revue contemporaine تحت العنوان التالي :
La prise d'Alger, racontée par un captif وقد أعيد نشره في

المجلة الافريقية سنة 1875 – 1876 . ولم يغفل المترجم الاشارة الى خطورة الكتاب وروعة ما يحتوي عليه من معلومات لا تقدر بثمن ، وتساءل كيف يظل مثل هذا الكتاب غير معروف بالنسبة للمؤرخين الفرنسيين ، والحال ان مؤلفه يصف أحداثا لم يحضروها ولا اتيح لأي واحد منهم ان يطلع عليها فى حينهـا .

واظهر بصورة خاصة الاثر الذي تتركه فى نفوسنا رواية بفايفر للاداث والمشاهد المحزنة ، التي عاينها اثناء معالجته للمرضى والجرحى فى الدور والثكنات .

وقد ترجمت هذا الكتاب لأول مرة الى العربية سنة 1968 ، ونشرته مجلة (الجيش) فى اعداد متتالية ، وكنت قد اخترت له عنوان : « اضواء على تاريخ احتلال الجزائر » ، لأني كنت عندئذ قد قصرت اهتمامي على الجانب السياسي والتاريخي . ولما عدت اليه وراجعته من اجل اصداره فى كتاب ، تبين لي أنه لابد من الاهتمام بالجانب الانساني ايضا ، ذلك أن حديث بفايفر عن نفسه ومشاغله ورفاقه لا يخلو بدوره من فائدة تاريخية واجتماعية . ولهذا ترجمت فصولا اخرى ، هي الفصول الخمسة الاولى ، والفصل الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر ، بالاضافة الى عدد من الفقر ، كنت قد أهملتها أو نسيتها فى الترجمة السابقة . واتضح لي كذلك أن بعض التعليقات ، التي وضعتها ، تحتاج الى مراجعة ، اما لأنها غير كافية واما لأنها بعيدة عن الصواب الى حد ما . وقد اقتضت هذه المراجعة استشارة كتب أخرى تتناول الموضوع نفسه ، فاتني الاطلاع عليها فى السابق . وهكذا رجعت الى كتب ألمانية ، استطعت الحصول عليها أخيرا ، زيادة على مصادر أخرى لا تقل عنها أهمية .

وفى مقدمة هذه الكتب الالمـانية كتـاب الامير النمسـوي فريدريش شفارتسنبيرغ Schwarzenberg (1800-1870) ، وعنوانه « التفاتات الى الجزائر » Rueckblicke auf Algier الذي نشره سنة 1837 ، ولكن الجمهور كان قد عرف ذكرياته الشخصية عن الجزائر بعد سنة من الاحتلال . وكان ، وهو الرجل العسكري ، قد دفعـه حبـه للمعـارك والمغامرات الى الانضمام الى الحملة الفرنسية ، فشارك فى المعارك كلها ، واظهر شجاعة فائقة فقلده الجنرال بورمون ، وكان شفارتسنبيرغ من رجال حاشيته ، وسام الشرف فى ميدان المعركة . وذكر فى مقدمة كتابه بانه سيتناول الاحداث التي حضرها بنفسه بموضوعية ، ويقف منهـا موقف الحياد . ولم أستفد منه هنا استفادة كاملة فى كتابة الملاحظات ، انوي تقديمه على حدة فى فرصة أخرى .

ورجعت ايضا الى كتاب شونبيرغ « نظرات على الجزائر »
A. Schoenberg, Blicke auf Algier ، وقد شارك هذا الطبيب الالماني
بدوره فى الحملة الفرنسية ، ونشر سنة 1837 موجزا عن « الجزائر من
الناحية الطبية » ثم اتبعه فى سنة 1839 بكتابه المذكور ، وقد صدر كلاهما
فى كوبنهاجن . والموجز عبارة عن محاضرتين ، كان المؤلف قد القهما فى
المجمع الملكي . اما الكتاب فقد جعل له شونبيرغ عنوانا طويلا ، وهو
« نظرات على الاحتلال الاخير والتاريخ الحديث للجزائر واستعمارها »
Blicke auf die letzte Eroberung, neuere Geschichte und Colonisation von Algier
وقسمه الى ثلاثة فصول ، فتحدث فى الفصل الاول عن عمليات الاحتلال
التي شارك فيها بدعوة من الحكومة الفرنسية ، وتناول فى الفصل الثاني
تاريخ الجزائر منذ بداية القرن الماضي من خلال حياة ثمانية دايات ، وتطرق
فى الفصل الثالث والاخير الى الحديث عن سكان الجزائر وعن الاراضي
الزراعية والحركة التجارية بعد الاحتلال . وقد ذكر المؤلف فى مقدمته انه
استمد اكثر معلوماته عن الجزائر فى عهد الدايات من رجل عاش فى الجزائر
مدة طويلة وكان شاهد عيان لكثير من الاحداث . وهذا الكتاب جدير
بالاهتمام ايضا ، وسوف اتناوله بالعرض والتلخيص فى فرصة اخرى .

يقدم لنا بفايفر فى كتابه هذا ، وقد فضلت ان اضيف الى العنوان الاول
فى الترجمة عنوانا اصليا ، هو مذكرات بفايفر ، ملاحظاته ومشاهداته فى
الجزائر . وتعتبر الحقائق المهمة التي يرويها مرجعا اساسيا لبعض المسائل
المتعلقة بظروف الاحتلال ومقدماته وملابساته . وقد حرص المؤلف على ان
يستعرض الرواية الجزائرية كما سمعها ، وهذا يعني أنه يظهر الجانب
الآخر الذي خفي عن بقية المؤرخين . وهكذا تبرز أهمية مذكراته ابتداء من
الفصل السادس ، حيث يتحدث عن العلاقات الجزائرية الفرنسية فى الفترة
التي سبقت دخول الفرنسيين الى الجزائر ، ويستعرض الاحداث التي
كان لها أثر فى هذه العلاقات وتطورها . ثم ينتقل فى الفصل التالي الى وصف
معركة الاسطولين الجزائري والفرنسي بصورة مفصلة ، فيشير الى مشاركة
الشعب فيها ، وينقل لنا حتى موقف بعض الافراد من الداي ومن نتائج
تلك المعركة . وذلك ما لم يمكن حتى الآن العثور عليه فى مصدر آخر .

ويصف بعد ذلك الاحداث التي وقعت فى شرق الجزائر ، ويحاول ان
يكتشف الاسباب التي ادت اليها ، ويبين فى الوقت نفسه علاقة الجزائر
بالسلطة العثمانية وعلاقتها بالحكومة المصرية ، وبالتالي علاقة تركيا ومصر
بفرنسا ، ومحاولة محمد علي التدخل فى شؤون الجزائر واسداء النصيحة

الى الداي . ويذكر بفايفر فى الفصل الثاني عشر حادثة السفينة الفرنسية ، التي تحدت الحامية الجزائرية ، واقتربت منها رغم الانذار الذي وجه اليها ، وينتقد كبرياء قائد السفينة ، وفى هذا التحدي دليل على ان فرنسا كانت تسعى الى خلق المبررات التي تسمح لها باحتلال الجزائر . ومنها ينتقل المؤلف الى رواية ما حدث بين الداي وبعض وزرائه بسبب هذه الحادثة ، وما نتج ذلك من توتر فى العلاقات بينه وبين الانكشارية من اصدقاء هذا الوزير او ذاك .

وفى الفصل الذي يليه يتحدث بفايفر عن استعدادات الجزائر للحرب بعد ان وصلتها اخبار الحملة التي تعتزم فرنسا القيام بها ضد الجزائر ، وعن تقرب الداي من الشعب من اجل الوقوف الى جانبه فى محاربة عدوه . وينتقد المؤلف الداي لتهاونه فى تنظيم وسائل الدفاع عن البر الجزائري واعتداده بقوته البحرية ، واستهانته فى الوقت نفسه بقوة فرنسا البرية . ويذكر انه قد سمح للجزائريين بحمل السلاح ، الذي كان محرما عليهم حمله فى السنوات السابقة ، واسترضاهم بمختلف الوسائل . ويروي بعد هذا حادثة المركبين الفرنسيين ، التي وقعت فى شرق الجزائر ايضا ، ويبين ظروفها ، ويشرح نتائجها اعتمادا على الرواية الجزائرية ، ويصف فرحة الجماهير بما تم فيها قبل بداية الحرب ، كما يتحدث عن تخوفات الطبقة البرجوازية من الحرب وعواقبها لأنها لا تخدم مصالحها الخاصة . واهم من هذا حديثه عن المشاعر الوطنية التي بدات تنمو فى نفس المواطن الجزائري خلال هذه الفترة .

ويفصل بفايفر القول فى المآمرة التي دبرتها طائفة من الانكشاريين للاطاحة بحكومة الداي ، ويكشف عن الخطة التي وضعوها من اجل تحقيق ما كانت تصبو اليه نفوسهم ، ثم يصف ما الم بالداي بعد اكتشافه لهذه المآمرة ويذكر الظروف التي اصبح يعيش فيها منذ تلك اللحظة التي فقد فيها ثقته فى الاتراك واخذ يحسب لغدرهم ألف حساب . وفى الفصل السادس عشر يتحدث عن نزول الجيش الفرنسي الى البر ، وكيف اسرعت الجيوش الجزائرية الى مقاومة الغزو الاجنبي ، دون ان تستطيع صده عن الجزائر ومنعه من احتلالها ، حيث تمكن بعد ذلك من دخولها منتصرا . ويقدم لنا المؤلف صورة مؤثرة عن المآسي التي خلفتها هذه الحرب ، وحتم عليه ان يعيشها هو طبيبا مداويا ، يرافقه الانين والصراخ حيثما اتجه .

ولا يغفل المؤلف الحديث عن موقف اليهود من قضية الاحتلال ، فيذكر بعض الجرائم التي ارتكبوها ، ويستنتج من ذلك انهم لم يكونوا جديرين بالحرية التي منحت لم بعد دخول الفرنسيين . وقد اكد شفارتسنبيرغ موقف اليهود هذا ، فأشار (ص 184) الى الخطأ الذي ارتكبه الفرنسيون حين منحوا اليود الخونة ، على حد تعبيره ، ثقتهم وسمحوا لهم بشيء

من النفوذ ، مما كان له اثره السيء فى الادارة من جهـة وفى كسب ثقـة المواطنين من جهة اخرى . وبهذا يتضح دور آخر من الادوار التي لعبها اليهود فى الفترات المختلفة من تاريخ الجزائر فى النصف الاول من القرن الماضــي .

ومن الفصول المهمة فى كتاب بفايفر حديثه عن باي تيطري ، مصطفى بومرزاق ، ووصفه لطبيعته ومطامحه وصراعه مع الجنرال بورمون ، الذي اظهر ، حسب رواية بفايفر ، استعدادا كبيرا لقبول الرشوة ، وتوزيـع المناصب على أساس ضخامة العروض المقدمة من طرف الراغبين فيها ، وكل ذلك بتعاون مع اليهود . وهذا ما جعل بومزراق يشعر بالاهانة التي لحقته من القائد العام للقوات الفرنسية ، ويصمم على محاربته ، فيطوف حول المدينة ، ويمنع وصول المواد الفذائية اليها ، ويتربــص بجنــود فرنســا خارجهــا .

— 5 —

ان الاحداث والوقائع ، التي يرويها بفايفر فى كتابه هذا ، غزيرة ومتنوعة، عاش بعضها بنفسه وشاهدها ، وسمع بعضها الآخر من غيره ، فحرص على تسجيلها بالصورة التي سمعها بها . والانسان معرض للخطأ ، سواء كان مصدره عدم انتباهه أو عدم دقة الناقل . ومن اجل هذا لا ينبغي أن ناخذ كل ما جاء فيه على أنه حقائق ثابتة ، لا يتطرق اليها الشك . فهناك اذن أشياء لابد من مناقشتها قبل تبنيها والاخذ بها ، منها مثلا ما ذكره المؤلف فى الفصل السادس عشر من انسحاب القبائل من معركة اسطى والي . فالظاهر انه قد اخطأ فى نقل ما سمعه ، فليس هناك ما يثبت دعواه هذه ، فالمصادر كلها تتحدث عن انسحاب الجيش الجزائري من أرض المعركة . فالامير شفارتسنبيرغ (ص 144) يتحدث عن انسحاب الاتراك أولا ثــم انهزام الجزائريين من الميمنة والميسرة ، أما صاحب تحفة الزائر (ص 132) فيشير الى هروب العرب والقبائل . ولم يتحدث حمدان خوجة ولا أحمد افندي عن هذه القضية اطلاقا ، ويفهم مما كتبه N. Robin فى المجلـة الافريقية (عدد 20 ، 1876) فى مقاله Notes historiques sur la grande Kabylie, p. 43 ff. ان بعض رجال القبائل قد عادوا الى جبالهم بايعاز من الانكشاريين ، أعداء الداي ، الذين كانوا ينوون خلعه وتنصيب داي آخر مكانه ، اما المحاربون منهم فلم ينسحبوا الى جبالهم الا بعد أن شاهدوا نسف قلعــة الامبراطور . ويذكر أيضا أن الداي قد تهــاون فى تزويدهم بالمواد الغذائية ، مما اضطرهم الى الذهاب للبحث عنها فى جبالهم .

وفي هذا المقال اشياء اخرى تتعلق بالدور الذي لعبته بعض المنشورات العربيــة في تخاذل الانكشاريين ومحاولتهم تثبيط عزائم المواطنين (انظر صفحة 82 — 83) .

هذا ولا ينبغي ان ننســى ان بفايفر اوربي ينظر الى الاشياء بمنظار آخر غير المنظار الذي ننظر اليها نحن من خلاله . وانا اذ اقدمه للقراء ، وخاصة المؤرخين او المهتمين بالتاريخ منهم ، مزودا بملاحظات رجل بعيــد عــن التاريخ ، ولكنه من هواته ، ملاحظات توضح هذه الفكرة أو تضيء تلك ، ارجو أن اكون قد ساهمت ، ولو بقدر ضئيل ، في حركــة بعث تاريخنــا القومي ، والله من وراء القصد .

الجزائر 1973/1/13

ابو العيد دودو

الفصـــل الاول

الوصول الى مدينة الجزائر

لم يحدث خلال الرحلة كلها ما يثير الانتباه ، وقد انتهت بسرعة الى حد ما ، بحيث اننا وصلنا الى ميناء الجزائر فى اليوم الخامس والعشرين . واني لعاجز عن اعطاء صورة عن الانطباع الذي تركه فى نفسي مرأى مدينة الجزائر لأول وهلة . لقد تراءى لي فجأة كل ما كنت أسمعه ، منذ طفولتي، عن الجزائر من فظائع ، فأخذت أتأمل وضعي الراهن ، واذا بأوصالي ترتعد أمام صورة مستقبلي الرهيب ، غير أني تذكرت أني قد نجوت فى صغري من أخطار كثيرة ، فاستعدت بعض شجاعتي ورسخ فى ذهني أن هناك الها رحيما يرعاني الآن أيضا ويمدني بالقدرة على الصمود وتحمل آلامي الجديـــدة .

تقع مدينة الجزائر فوق جبل ، وتمتد منه منحدرة الى الميناء ، بحيث ان المياه تلمس الصفوف السفلى من المنازل ، وتنتصب الدور العالية ذات السقوف المسطحة الى جانب بعضها بعضا ، وهي كلها مبيضة بالكلس ، وتخلع على المدينة من جانب البحر منظرا بديعا ساحرا ، فصفوف السطوح ترتفع فوق بعضها بعضا تتخللها القباب والمنارات والقصور . وتتميز المساجد ، وقصر الداي السابق ، وثكنات الانكشاريين ، ومجموعة من المنازل الخاصة عن بقية البنايات الاخرى ، وخاصة القصبة ، وهي القلعة ومحل اقامة الداي ، التي تقع فوق الجبل فى القسم الاعلى من المدينـــة وتمتد من طرفها الى الطرف الآخر ، وفوقها علم كبير يخفق فى كبرياء .

وتوجد أمام المدينة قلاع وحاميات رهيبة ، تحيط بالميناء كله . ويقع الميناء الذي ترسو به سفن القراصنة خلف قلعة ، أقيم فوقها عدد كبير من المدافع الثقيلة ، ولا يكاد الميناء يتسع لثلاثين سفينة . وهناك على جانبي المدينة تلال ووديان وسهول ، تتناثر فيها حدائــق السفــراء الاروبيين وبيوتهم الفاخرة ، التي تهتز فوقها أعلام بلادهم . وهذا بالاضافة الى عدد لا يحصى من بيوت المتعة التي تطل من البساتين أو حقــول البرتقــال والزيتون ، فتخلع على المنطقة كلها منظرا بالغ الروعة . وتمتد فى المؤخرة جبال الاطلس الشماء ، وبعضها مغطى بالثلوج على الدوام ، وهي عبارة عن صفوف طويلة تمتد من الجنوب الشرقي الى الغرب ، ويمتد فى اتجاه عنابة شاطيء رملي ضيق ، يستغرق قطعه عدة ساعات ، ويتخلله وادي الحراش الذي ينبع من الجبل ويصب فى الميناء ، ويمتاز موقع الجزائر بتنوع مناظــره .

وعندما وصلت السفينة الى الميناء رفعت علمها وأطلقت من مدافعها ثلاث طلقات ، رفعت بعدها الاعلام فوق القلاع ، وتناهى الينــا من المدينة ضجيج رهيب ، فقد دفع الفضول الشعب الى الميناء ، وكانت السطوح مغطاة بالنساء المحجبات ، وهــن يزغردن . وما أن وقفت السفينة حتى وصلت قوارب ، وذلك لأخذ العبيد بالدرجة الاولى ، فأمرنا بالصعود اليها للنزل الى البر . وعند وصولنا وضعنا فى الحين فى قبو مظلم ، وقفل الباب علينا . وكان الشخص منا يسأل الآخر عن المصير الذي ينتظرنا ، بعضنا يتنهد ويطلب المعونة من الله ، وبعضنا الآخر يجدف ويلعن اليوم الذي ولد فيه . وبعد ساعات من الانتظار المؤلم فتح الباب ودخل عدد من الاتراك ، استطعنا أن نتبين بينهم رجلا موسرا ، وشرعوا يتأملوننا ، وقد علمت فيما بعد أن ذلك الرجل الموسر كان وكيل الخرج أفندي ، أو وزير البحرية . كانوا يتكلمون باللغــة

التركية . فلم يكن لذلك فى وسع اي منا أن يفهم كلمة واحدة ، وقد سمعناهم عدة مرات يرددون كلمات : القنصل الانجليزي ، القنصل الفرنسي . غير أننا لم نفهم آنئذ ماذا كانوا يعنون بذلك .

وفى المساء حلت ساعة الفراق ، فقد فصلنا عن بعضنا بعضا ، وكان عددنا خمسة عشر ، وأخذنا فرادى ومثنى . وكان أحدنا ينظر الى الآخر بتأثر ، الا أن كلا منا كان مشغولا بنفسه ، بحيث لم يكن لديه وقت للتفكير فى رفاقه فى الشقاء . وكان معنا يوناني أصغر مني (كان قد بلغ سنه السادسة عشرة فى ذلك الحين) سبق له أن أحسن الي عندما بدأنا رحلتنا فى سفينة القراصنة ، اذ قدم لي منديله لاحفظ جرحي من هواء البحر — كان الانكشاريون الاجلاف قد افتكوا مني منديلي — فقدر لهذا الزميل المخلص ، وقد ولد فى « ابسرا » ، وحمل منها الى الاسر ، أن يرافقني لمدة طويلة . ذلك اننا حملنا الى منزل الخزناجي أفندي ، وقدمت لنا معا بمجرد وصولنا الثياب الخاصة بالعبيد ، واستخدمنا طاهيين فى مطبخ الوزير ، والتقينا هناك بأربعة عشر عبدا ، من بينهم عدد من الامريكيين والاسبانيين والايطاليين واليونانيين وهولاندي واحد .

الفصــل الثانــي

أوضاعنــا فى المطبــخ

كان لباسنا يتكون من قلنوسة حمراء وقميص وصدار من الصوف وسروالين ينتهيان فوق الركبة ونعلين من النوع الرخيص . أما طعامنا فانه لم يكن من النوع الذي يفرض علينا أن نشكو من الجوع ، فقد كانت فضلات المطبخ كلها لنا وكذلك كل ما يتبقى فوق مائدة الوزير أو السادة الآخرين من أهل البيت . وكنا نتام فى مخزن واسع ، وكانت أفرشتنــا بسيطة جدا ، أي أنها كانت عبارة عن ألواح فوقها جلود الغنم وأغطية خفيفة من الصوف .

كان علي أن أعاني هنا من شرين ، كدرا صفو حياتي وكان لهما أثر فى صحتي ، أحدهما قذارة بعض رفاقي وهمجيتهم ، والآخر كثرة الحشرات والجرذان والثعابين فى كثير من الاحيان . ان مخزننا وأفرشتنا لم تكن من النوع الرديء ، وكان فى الامكان المحافظة على نظافتها ، الا أن الامر ــ للأسف ــ لم يكن كذلك عند بعضنا ، فقد مال الرفاق الى الفوضى وقلة النظام ، وقدموا لبقية المحبين للنظافة صورا مقنعة عن ذلك السلوك الذي نغص علينا اقامتنا آنئذ وكان سببا فى أمراض وعواقب أخــرى ظهرت آثارها فيما بعد . ولم يكن هؤلاء الهمج يستمعون لرأي أي واحد منا ، حتى أنهم تشاجروا فيما بينهم أكثر من مرة . وكانت الجرذان على العموم كثيرة فى الجزائر ، وكانت وفيرة فى قصرنا أيضا ، بحيث انه كان من الصعب على الانسان أن يحمي نفسه منها . وكنا نصطادها فى كل مساء

تقريبا بالعصي . وفى الليل تدخل الينا من المخازن المجاورة زرافات ، وتنطلق من مخزننا الى المطبخ ، وكثيرا ما كانت تأتي الى أفرشتنا وتحرمنا من الراحة . وعلى الرغم من أن أحد رفاقي ، وهو سافوريار ، قد أعد لها فخا ومسك عددا كبيرا منها ، فاننا لم نكن نشعر بأن عددها يتناقص . وما أكثر ما عثرنا على الثعابين الكبيرة تحت أفرشتنا ، وكانت تتسلل الينا عبر نافذة ذات قضبان ، تطل على خندق القلعة الذي نبتت فيه الاحراش الكثيفة وأشجار الصبار .

وكانت وظيفتنا تتمثل فى تنظيف القصر وغسله بالماء واشعال النار فى المطبخ وذبح الغنم والدجاج ، وتنظيف البقول والخضر والصحون وجميع الادوات المنزلية ، وكذلك القيام بالاعمال المنزلية كلها بصورة عامة . ولم تكن أعمالنا تستغرق اليوم كله ، فقد كانت هناك أوقات فراغ، أو بالاحرى ساعات هادئة ، نقضيها فى النوم فرارا من القلق ، الا أننا كانت لنا فى بعض الاحيان أعمال كثيرة ، وغالبا ما كان الطهاة يحثوننا على العمل بالضرب ، اذ كانت بعض زوايا القصر تحتوي على عصي وسياط ، كثيرا ما استعملت ضدنا فى بداية الامر حين كنا لا نحسن اللغة التركية ، مما أجبرنا على تعلمها ، وكانت صعبة جدا بالنسبة لي فى أول الامر ، ومع هذا استطعت أن أتعلمها بصورة أسهل من بقية الرفاق ، ولم أتعلم كلماتها الا عن طريق السؤال عن الاشياء والاشارة اليها ، وكنت أكتبها على الحائط بواسطة مسمار أو فحمة (وكم لحقني الضرب من أجل ذلك) ، غير أني كنت قد كسبت الكثير . وعندما تعلمت جملتي « ما اسم هذا ؟ » و « ما هذا ؟ » ، لم أدر كيف استعملهما ، وأخيرا تم لي ذلك أيضا . فحينما يكون التركي منشرح الصدر ، فانه يسألني من جديد عن الكلمة التي علمني اياها ، ويشير الى الشيء متسائلا : « ما هذا ؟ » وما أن بدأت أفهم قليلا ، حتى أخذت أصغي ، كالفأر ، الى الاتراك وهم يتحدثون فيما

بينهم لا يروون الحكايات . واخيرا تجرأت انا نفسي على الحديث ، واخذت احدثهم عن اشياء فاعجبوا بها وطلبوا مني ان اقبل الاسلام . وعندما رويت لهم مرة قصة « حموعبا » ، وكنت قد صنعتها في قالب تركي ، بكى الكثير منهم

الفصــل الثالــث

الفــرار

بعد أن قضيت نصف سنة فى هذا الوضع المؤلم ، الذي أصبحت فيه حياتي عبئا ثقيلا علي ، وضعنا نحن العبيد خطة للفرار ، يمكن اغتفارها جدا ، ولكنها لم تكن سديدة . وكان فى نيتنا ، ان نحن نجونا من الحراس، أن نسرع الى البحر ، فلعلنا نعثر هناك على سفينة أروبية أو قارب ، واذا لم يتم لنا ذلك ، فسوف نتجه الى أحد أبواب المدينة بقصد الوصول الى منزل أحد السفراء الاروبيين لكي يعمل على اطلاق سراحنا . آما اذا لم نجد سفيرا ، وذلك خوفا من أن ينكشف أمرنا ، أو رفض أن يطلب من الداي اطلاق سراحنا ، فقد قررنا أن نرحل نحو الجنوب الشرقي فى اتجاه تونس ، وكان اليأس هو الذي أملى علينا هذه الخطة الاخيرة ، فالقافلة فى حاجة الى عشرين يوما لقطع الطريق الممهد بين الجزائر وتونس . وقد كنا ونحن فى البداية فى حاجة الى وقت كثير حتى لا نكتشف ، فلابد لنا ، عوض السير على الطريق الممهد ، من أن نسير عبر غابات مليئة بالوحوش الضارية ، ونهتدي بالشمس والنجوم الى طريقنا . وكان علينا والحالة هذه أن نجتاز صحراء قفراء ونقطع الطرق الجبلية الوعرة فى بلد ، يعرف بعضنا قليلا من لغته وبعضنا الآخر لا يعرف منها شيئا على الاطلاق ، هذا بالاضافة الى الموت الذي كان ينتظرنا . لقد كنا نعرف هذا كله . ومع ذلك لم نتراجع عن خطتنا ، وكان اليأس يشجعنا ، ولم يكن لنا نحن العبيد ما ما نخشى فقدانه ، اذ أن حياتنا لم تكن ملكا لنا ، بل كانت ملكا لأسيادنا . ولهذا ارتأينا أن ننشد الخلاص من هذا الوضع مهما كان الثمن .

وفى عصر أحد الايام ، عندما كان الانكشاريون ، الذين يقومون على حراسة القصر . قد ذهب بعضهم الى المقاهي ونام بعضهم الآخر فوق مقاعدهم ، ظهر لنا أن نبدأ رحلتنا ــ ولكم كانت دهشتي كبيرة حين تراجع العبيد جميعهم وأعربوا عن رغبتهم عن هذه الخطة المشكوك فى نجاحها ، ولا أستثني منهم غير الهولندي الذي صمم على الفرار ، فاما أن يتحرر أو يموت معي . أما بقية العبيد الذين شاركوا فى اعداد خطـة الفرار ، وألحوا علي فى السماح لهم بالمشاركة فيها ، وحرصوا على تنفيذها وهدوني الى فكرة الفرار ، فقد تخاذلوا فى جبن . لم تكن خطتي تخلو من جرأة ومخاطرة ، ومع ذلك لم يكن لي من جهة أخرى ما أخشاه ، لأنه لم يكن من السهل أن ينكشف أمرنا نحن الاثنين بخلاف ما اذا أراد خمسة عشر الفرار دفعة واحدة . وكيفما كان الحال فاني لم يكن فى وسعي أن أتراجع فيما عزمت عليه . كنت آنذاك شابا مغامرا ، ولذلك لم يدع لي كبريائي وحيائي مجالا للخوف . ان فكرة الحرية كانت قد تمكنت من نفسي الى درجة أني كنت عاجزا عن عمل أي شيء آخر غير ما سبق أن اتخذت قرارا بشأنـــه .

وعندما ودعنا أنا والهولاندي الباقين ، بكى الكثير منهم ، وطلبوا منا أن نبقى ، غير أننا قد اتخذنا قرارنا . واجتزنا الحراس ، وقلبانا يدقان بشدة ، وانحدرنا بسرعة فى الشوارع المظلمة ، وبلغنا أخيرا شارع البحرية، فأصبح الميناء قريبا منا وتمكنا من رؤية السفن أمامنا . وفجأة شعرنا بأيد تمسك بنا من الخلف ، وسمعنا صوتا يدوي خلفنا : « قفا ، أيها الكلبان المسيحيان ! » فوجدنا أنفسنا فى ظرف يعجز القلم عن وصفه ، فقد أحاط بنا ثلاثة من الحراس الانكشاريين ، وأخذوا يدفعوننا أمامهم ، وأعادونا الى مكاننا السابق . وعندما وصلنا الى القصر وجدنا المزوار ورفاقه فى انتظارنا ، اذ أن كبير أمناء القصر كان قد أمر بضربنا بالفلقة ، فانقض

علينا عبيد الجلاد كالوحوش الضارية ، وأوقعونا أرضا ، فكان نصيب كل منا مائة وخمسين ضربة على الاقدام ؛ وهذا شيء بسيط بالنسبة للتركي وكثير جدا بالنسبة لنا . فوقعنا تحت وطأة آثار هذا العقاب وظللنا نتقلب فوق فراشنا عدة ساعات ، يتخللها فقدان الوعي أحيانا . وكانت أقدامنا قد انتفخت واتخذت لونا أزرق غامقا ، وانسلخت بطون أقدامنا ، مما سبب لنا آلاما والتهابات حادة مريعة . ولم تخف تلك الآلام الا بعد أن أعدد لنا رفاقنا خلا مخلوطا بالماء ، غسلنا به أقدامنا . واعترانا مرض شديد ، كثيرا ما تمنينا معه لو أن الموت يضع حدا لشقائنا ، ومع ذلك كانت الغلبة لقوتنا وقدرتنا على الاحتمال ، فبعد ثلاثة أسابيع أصبح صديقي ، وهو أقوى مني الى حد ما ، قادرا على السير ، وبعد شهر شفيت أنا الآخر .

وزارنا بعض الاتراك الفضوليين وسخروا منا ، وتساءلوا كيف أمكن أن نفقد نحن الاروبيين الاقوياء شجاعتنا حيال شيء بسيط كهذا ونحمل الى الفراش ونحن نكاد نموت ، وأضافوا قائلين ان أطفالهم يتلقون فى الكتاتيب مائة وخمسين ضربة ؛ ومع ذلك فان الحال لا تصل بهم الى ما وصلنا اليه نحن . فاعترفنا لهم بأنهم على صواب فى أن التركي يحتمل من الضرب ما لا يحتمله الاروبي ، وضربنا لهم مثلا على ذلك ، وهو أن الحمار على صغر حجمه يحتمل أكثر مما يحتمله الحصان مع ضخامته . فأظهروا الاستياء لهذا التشبيه ، وعندئذ حاولنا أن نهدىء من روعهم ، وقلنا لهم لقد أردنا بذلك أن نوضح لكم كيف يربى الاطفال فى أروبا المتقدمة وأن أسباب الآلام التي يشعر بها الاروبي روحية أكثر منها جسمية . ففهموا ما أردنا قوله ، وقال أحدهم اننا لا نصلح لشيء لا للدنيا ولا للآخرة على الرغم من أن تربيتنا تشبه تربيتهم أو أحسن منها فى بعض الاشياء . ثم أضاف قائلا اننا غير متحدين ، وأن حبنا لبعضنا بعضا أقل من تحاب

المسلمين وتعاطفهم . « الله أكبر . لو وقعنا نحن فى أسركم فاننا سوف تتعلق ببعضنا بعضا ونتحاب ولا يخون أحدنا الآخر . » وبما أننا لم ندرك ما كان يعنيه بكلماته تلك ، ولم تكن لنا رغبة فى مواصلة الحديث خشية أن يقع لنا شيء آخر كما أننا لم نكن بعد نحسن الحديث بالتركية ، فقد قلت له ان ما قاله حق وصدق ، أما فيما يتعلق بالخيانة فانها تحدث عند الامم الاخرى أكثر مما تحدث عندنا . وهنا بدأ التركي يضحك وقال انه قد خدعني وهو يضرب لي مثلا ، واستمر يقول ان أحد رفاقنا ، وهو سافوريار ماسك الفئران ، قد وشى بنا الى قيم القصر بمجرد أن هربنا ، فأمر رجال الحرس بمتابعتنا فى الحين ، وسخر منا الاتراك وانصرفوا عنا .

حقا لقد شعر بالعار أمام الاتراك ، وكدنا نفقد صوابنا لخيانة سافوريار لنا ، فقد هجم عليه العبيد كلهم وبصقوا فى وجهه ، ووصموه بالخيانة والمكر ، ولكنه أنكر ذلك وحاول أن يدافع عن نفسه على قدر استطاعته . وكم آلمني أن يخوننا واحد منا ، ومع ذلك أمكنني أن أغفر له جريمته بسهولة ، فمن المحتمل أن يكون قد فعل ما فعل طمعــا فى أن يتحسن وضعه ، وهذا ما لم يحدث .

الفصـــل الرابـــع

تحـــول مصـــيري

عندما شفيت من مرضي واستأنفت عملي ، اشتدت وطأة العبودية علي ، فقد عاودني الحنين الى الحرية والى وطني . وكلما فكرت فى أني ربمـــا أبقى عبدا مدى الحياة ، وأحسست أني سوف أعذب لأقل خطا أرتكبه ، ازداد بي اليأس ووصل بي الى حد التجديف . وقد عزمت عدة مرات على انهاء حياتي بسكين المطبخ ، وهي سلاحي الوحيد ، الا أني كنت فى هذه اللحظات السوداء بالذات ، التي تصبح فيها الحياة عبئا ثقيلا علي فى وضعي الراهن ، ويغدو خيالي فيها بلا حدود ، أشعر أن قوة عليا تمسك بي فجأة ، وتبعدني عن الهوة التي أوشك أن أقع فيها ، وعندئذ تعود الطمأنينة الى نفسي ، وترد على ذهني أفكار أخرى ، وشيئا فشيئا أصبحت مثل هذه الحالات نادرة ، وفى النهاية استحالت الى حزن دائم ، ولم أعد أبحث عن الفرار والعون الا فى عقيدتي الدينية ، وقد حررتني من يأسي ومن أفكاري الســـوداء .

وبعد أن عشت فى هذا الوضع حوالي سنتين ، استجاب الله لدعائي ، اذ حضر الوزير ذات يوم الى المطبخ ، وشاهد ما يجري فيه ، وتحدث مع الطهاة ، وسأل رئيسهم عن تصرفات العبيد ، فأبى هذا الا أن يعبر عن شكره لنا أمامه ، وأخيرا توجه الى وسألني عن المهنة التي تعلمتها سابقا فى أروبا ، فأجبته بأني تعلمت فن الجراحة ، فسر بذلك سرورا كبيرا وقال لي انها مهنة تدر الاموال على صاحبها وخاصة فى الجزائر ، حيث لا يوجد

طبيب ماهر بعد أن انتهى فن الطب العربي . ثم أخبر أصدقاءه بأني تعلمت التركية في مدة قصيرة ، فقلت له بالتركية : « اذا كان تعلمي للغتك يثير اعجابك ، يا مولاي ، فاعلم أني تعلمتها مضطرا ، لأفهم أوامر الطهاة ولا أتعرض لسوء المعاملة من جهة ، وحتى أبعد عني الضجر من جهة أخرى . ولو منحتني حريتي لتعلمت الكثير من أشيائكم الجميلة واستطعت آن أفيدكم بفني . » فضحك الوزير من كل قلبه وانصرف عني .

ومرت على هذا الحديث عدة أسابيع ، وذات يوم جاءني أمين القصر وقال لي ان المولى يطلب مساعدتك ، فذهبت اليه ، فوجدته في غرفة نومه ، وقد اشتدت عليه وطأة المرض . كان الوزير قد تجاوز الخمسين من عمره بسنوات ، وكان يعاني كثيرا من المتاعب بسبب السمنة المفرطة كما يعاني من الالتهابات النزلية ، غير أني لاحظت أن لديه التهابا في الكبد . ما العمل اذن ؟ اني لم تكن تنقصني المعارف فقط ، وانما كانت تنقصني الادوية أيضا . لقد وجدتني حقا في موقف حرج ، لأن مستقبلي متعلق بنجاح هذا العلاج أو فشله . وبرغم هذا اتخذت قراري بسرعة ، فأرسلت من أحضر لي دم القنفذ ، ووضعته فوق كبد المريض ، ثم حضرت مزيجا من الشاي والسكر والصمغ العربي ، وأمرته أن يتناول منه على الطريقة الاروبية ملعقة كل ساعة ، ووصفت له حمية ، وطلبت منه أن يتناول المشروبات الباردة .

وواصلت علاجه بهذه الصورة لمدة ثمانية أيام ، وفي اليوم التاسع قام الوزير يتجول في غرفته . وعندما زرته للسؤال عن أحواله ، سر لذلك كثيرا ، وأثنى علي الثناء كله ، وأهدى الي أشياء عديدة ، من بينها ساعة ذهبية ثمينة ، واتخذني طبيبه الخاص . ومنذ تلك اللحظة أصبحت كأني حياة أخرى ، فتركت مغارة الفئران ، وسكنت غرفتين كبيرتين

في القصر، لهما ديوان على امتداد الحائط، وأرضيتهما مغطاة بزرابي نفيسة. وكانت بهما على العموم أنواع من الزينة .

وبدلت ثياب العبيد بثياب أخرى ثمينة مصنوعة من القطن وقمصان رفيعة ، واستعضت عن فضلات الاطعمة بأكلات لذيذة ، ويقوم على خدمتي بسكريان . باختصار لقد تحولت من كلب مسيحي محتقر ، وطباخ شاب مضطهد ، كان معرضا للمعاملة السيئة من طرف الطهاة وبقية الاتراك ، الى طبيب خاص للخزناجي أفندي ، كما لو أن ذلك قد تم بفعل ساحر .

كان وضعي الجديد أكثر صعوبة ، فقد كان علي ألا أظهر من التصرفات الا ما يليق بمنصبي هذا . ولم أكن أفتقد شيئا الا حريتي ، وهي كل شيء بالنسبة لي ، فمن أجلها حاولت الفرار وغامرت بحياتي . ان ضياعها قد جعلني أكثر رفاقي شقاء ، ذلك أن شعورهم بفقدانها لا يتمثل الا في أنهم حرموا من اشباع شهواتهم الخسيسة ، ثم انهم لم يكونوا يشعرون بأوضاعهم المؤلمة قدر شعوري أنا بوضعي . لهذا أمكنهم أن يرفضوا المشاركة في مشروع الفرار ، ولهذا استطاع واحد منهم أن يخونني . (1)

الفصـــل الخامــــس

بليـــة جديـــدة

كانت وظيفتي تنحصر فى معالجة الوزير وغيره مــن أفراد القصر اذا أصيبوا بمرض ، فكان لي فائض من الوقت . وكان الداي ، الذي لم يكن له طبيب خاص ، يستشيرني ، اما بواسطة الوزير أو بواسطة أحد خدامه ، كلما حلت به وعكة . وكان يرغب فى رؤيتي ، ولكن قوانين اللياقة لم تسمح له بذلك ، لأن الطريق فوق السطح كان يمر ببيوت الحريم . أما طريق الشارع فكان به كثير من الحراس ، وهو أمر لابد أن يثير انتباه الاتراك ، ولهذا لم أتمكن من رؤيته فى ذلك الحين ، ولكني رأيته فيما بعد .

وأحضر لي الوزير بأمر من الداي صيدلية صغيرة وآلات الجراحة من باريس ، أما الكتب فلم يكن لدي شيء منها ، فكنت أشعر بفقدانها بصورة مؤلمة ، لرغبتي فى اكمال معارفي من ناحية ، وحاجتي الى ما أسد به الفراغ فأبعد السأم عني من ناحية ثانية . فحين كنت أفقد الرغبة فى الحديث مع أتراك القصر الكسالى أو مع العبيد ، كنت أحشو غليوني وأتمدد فوق الاريكة ، فأجد الراحة التي تتيح لي التفكير فى الماضي والمستقبل .

كنت أصعد يوميا الى سطح القصر وبيدي منظار مكبر ، فيدخل منظر البحر والمدينة وضواحيها العزاء الى قلبي ، وتنسيني الاشياء الجديدة وضعي . وكانت طيور القصر من ببغاوات وحمام وعصافير من وسائــل تسليتي وانشغال نفسي . وكثيرا ما كنت أتسلى بحجلة ألفتني وببغاء علمته

التركية ، ثم بعندليب ألفني الى درجة أنه كان يتبعني أنى توجهت فى القصر وبناء فوق حافة الاريكـة .

وعشت خلال سنة كاملة حياة لا تعتري ساحتها الهموم ، ولكنها كانت رتيبة . ثم غام أفقها مرة أخرى ، وثارت فوق رأسي عاصفة مريعة ، وكان من شأن اللحظة الواحدة فيها أن تقرر حياتي أو موتي . فقد احتوى القصر فيما احتواه على تركي جميل الطلعة ، سيىء الطباع ، وهو حفيد للوزير ، أبرز صفاته الكبرياء ، والشهوة ، والحسد ، والحقد ، والغضب ، وحب الانتقام وخاصة التعصب . كان يدعى عبد الله ، وبما أن نفوذه فى القصر كان محدودا ، فلم يبق له الا أن يسلط العذاب على العبيد ، فكان يحاول باستمرار أن يسيء معاملتهم تشفيا وخبثا .

وقد كنت أنا بالذات قذى فى عينيه لمدة طويلة ، فلم يكن يحتمل أن يسكن كلب مسيحي على حد تعبيره فى غرفة أفضل من غرفته ، وأن يقام له وزن ويكون له من يقوم على خدمته مثله،وأن يجلس معه الى نفس المائدة ويتناول طعامه من نفس الطبق . وما أكثر ما كان يقارن بنظرات حاسدة بين ثيابي وأشيائي الاخرى ، التي استلمتها هدية من الوزير ، وبين ثيابه وأشيائه . وكلما تجاهلته ازداد من حقد وحنق علي ، وحاول أن يرضي نفسه بالاساءة الي بشتى الوسائل والطرق ، والوشاية بي الى الوزيـر كذبا وبهتانا بقصد ابعادي عنه . وبما أن الوزير كان يعرف كلا منا ، وكان فى حاجة الى مساعدتي الطبية ، فقد فشل فى محاولاته كلها . وعندما كنت ذات يوم جالسا فى الممر أمام غرفتي ، اقترب مني عبد الله هذا ، وأخذ يهينني ، ومما قاله لي عندئذ : « انك تفكر ثانية فى وطنك الذي يأكل أهاليه لحم الخنزير ويستحمون فى الخمر ، أليس كذلك ؟ » وراح يسمعني كلاما [illegible] حول هذا الموضوع ، متخذا من نفسه نموذجا لما يقوله

عاده . وأنهى كلامه بقوله ان علي أن اتخلى عن ديني وأن أقرأ القرآن ، لأني لن أنال حريتي وهنائي ، وأستعيد كرامتي الا بذلك .

كنت فى السابق لا أهتم بحديث من هذا النوع ، ولم أكن أرغب فى أن يعرف عبد الله أن الطرق كلها تفضي الى شارع عام ، يصل منه كل انسان على وجه الارض الى هدفه ، ولكني ثرت فى وجهه فى ذلك اليوم ، لأنه انتزعني من أحلامي ، وشكرته على اهتمامه بالآخرين ، ثم رجوته أن يعفني فى المستقبل من مثل هذا الحديث . غير أنه استمر فى ذلك ، فطلبت منه أن يحسن من سلوكه قبل أن يتوجه بالنصح للاخرين . ولما احتد فى كلامه وقال ان القرآن لا دخل له فى سيرة الانسان وسلوكه ، لعنته ولعنت ما يدعو اليه . وكان ذلك خطأ ارتكبته ، فقد راح عندئذ يصرخ فى وجهي ، وأراد أن يسيء معاملتي ، ولكني دافعت عن نفسي وانسحبت الى غرفتي .

أثار عبد الله حينئذ ضجة كبيرة ، فأسرع اليه سكان القصر ، وراح يتهمني كذبا بأني كفرت بالله وبرسوله وبكلام الله . وعندما رجع الوزير فى المساء الى القصر أسرع عبد الله اليه ، وأخبره بذلك مضيفا اليه أقوالا أخرى من تلفيقه ، وأحضر عددا من الانكشاريين ليشهدوا على صحة ما أدعاه . فدعاني الخزناجي أفندي ، وذكرت له القصة كما رويتها ها هنا ، ففزع لقلة حذري ، وأوضح لي أني استحق على ما قلته الموت قتلا أو حرقا بالنار ، ثم ذكرني بالامريكي واليهودي اللذين أعدما فى السنة الماضية، لأنهما لعنا القرآن . وأخيرا أمرني بالخروج وهو يردد كلمات غامضة رهيبة ، وهي أنه لا يستطيع اعفائي من العقاب لأن لحفيده شهودا .

عدت الى غرفتي ، ولكني لم أستطع النوم ، وقضيت ليلة مريعة . كانت الافكار تتزاحم فى رأسي ، وخيل الي أن روحي أبوي تطيران حولي ، ولم يحل بيني وبين الانتحار الا التفكير فيهما وذكر الله . وفى الصباح جاء أمين القصر وقادني الى ساحة القصر ، حيث بسطت زربية ، ووقف الجلاد

ورفاقه ، وهناك رأيت الاسلحة الفتاكة ، ورأيت عبد الله فى الرواق وعلى فمه ابتسامة تشف . فنزعت عني ثيابي وطرحت أرضا ، ومسكني ستة أشخاص ، وجلدوني مائة وخمسين جلدة ، أفقدتني وعيي ، وعاد الي عندما شعرت بألم مريع ، فصعد الدم الى رأسي وفقدت وعيي من جديد ، وخيل الي أنني فى منطقة مخيفة ، تملأ جنباتها أشباح غريبة .

الفصـــل الســـادس

قطع العلاقـــات مـــع فرنســـا

وفى أثناء هذه الفترة الرهيبة علمت بحادثة ، لاح لي من خلالها بصيص من الامل فى النجاة من العبودية ، وقد أظهرت الاحداث أن هذا الامل كان له ما يبرره ؛ فتعلمت من ذلك ألا أيأس من عدالة السماء فى أيـــام الشقاء وأقطع الامل من اعانتها ، فقد سبق لها أن كانت بجانبي مرتين .

فى اليوم الذي سبق عيد الفطر (2) من سنة 1828 حضر جميع القناصل الاروبيين الى القصر لتقديم التهاني بمناسبة حلول العيد (3) ، فاستقبلهم الداي استقبالا حسنا باستثناء قنصل فرنسا العام السيد دوفال . وكان هذا الاخير قد أقام مدة طويلة فى القسطنطينية ، فتعلم خلالها اللغة التركية ، ولذلك كان فى وسعه الحديث باللغة التركية مع الداي دون واسطة مترجم . وقد كانت له من ذلك طبعا فوائد جمة ، الا أنه لهذا بالذات كان قد أطلق للسانه العنان فى حديث كان قد أجراه مع الداي فى السنة السابقة (1827) مما أدى الى نشوب خصام عنيف بينهما ، نتج عنه توتر فى علاقة أحدهما بالآخـــر .

وكان الداي قد سأل قنصل فرنسا عما اذا كانت قد وصلته من حكومته تعليمات ملائمة بشأن النقاط التي تفاوض فيها فى مثل هذا اليوم من السنة الماضية ، فأجاب القنصل بالنفي ، ثم أضاف قائلا له بأن حكومته تفضل أن ترسل أسطولها وجيوشها الى الشواطيء الجزائرية ، وترفع أعلامهـــا فوقها ، لتكون عبرة للداي ، على أن تستجيب لمطالبه (4) . فثارت ثائرة

الداي عندئذ ، ولطم القنصل الفرنسي على رأسه بالمروحة التي كانت بيده فى تلك اللحظة (5) . وبعد ذلك سأله عما اذا كان لا يعرف فى أي مكان هو ، وأن فى امكانه أن يأمر باعدامه فى الحين (6) ، ثم صرفه طالبا منه أن يغادر بلاده فورا ، والا فانه سوف يتخذ ضده اجراءات أخرى . فانصرف القنصل الفرنسي الى منزله حيث اجتمع ببقية القناصل الاروبيين، وكلف قنصل سردينيا بالقيام بالاعمال الفرنسية فى الجزائر . وفى اليوم نفسه ظهرت فى ميناء الجزائر سفينة شراعية فرنسية ، كما لو أنه كان على موعد معها ، فأخذته وأتباعه ونقلتهم الى فرنسا . (7)

ومهما كانت معرفتي للمسائل التي أدت الى حدوث هذه الاختلافات قليلة ، فاني أحب مع ذلك أن أتعرض للنقاط التي أتاحت لي الفرص الاطلاع عليها بواسطة الجزائريين أنفسهم . ومع أني لا أستطيع أن أضمن أنها كلها صحيحة ، فان بعضها على الاقل يقدم توضيحا للتقارير الفرنسية المعتدلة ، خاصة أيام حكم بولينياك .

كان على فرنسا ، بمقتضى المعاهدات المعقودة بينها وبين الجزائر سابقا، أن تقدم للجزائر اتاوة سنوية ، وبارجة حربية ، وكمية مناسبة من البارود وقذائف للمدافع . وكان على الداي أن يسمح لها فى مقابل ذلك بمرور سفنها فى حوض البحر الابيض المتوسط واقامة مركز لصيد المرجان بعنابة . ويقال ان هذه العلاقة بقيت قائمة الى زمن الجمهورية الفرنسية ، الا أن حكومة ذلك العهد طلبت من الداي اعفاءها من تقديم البارجة الحربية السنوية ، وذلك لحاجتها هي نفسها لسفنها ومؤونتها ، فاستجاب الداي لرغبتها اكراما لها . ثم حدثت بعد هذا جفوة بين الطرفين عدة مرات، فتوترت العلاقات بينهما بصورة بالغة ، بحيث أن الداي أعلن الحرب على فرنسا فى الوقت الذي كانت فيه هذه تحارب مصر . (8)

وفي سنة 1806 أخذ الداي من الفرنسيين مركز صيد المرجان بعنابة وسلمه للانجليز ، الذين تفوقوا أيضا على الفرنسيين في البحر الابيض المتوسط . ثم عقدت فرنسا مرة أخرى معاهدة مع الجزائر ، تقضي بأن تدفع فرنسا ما بقي في ذمتها من ديون تجاه الجزائر ، على أن يحترم الداي مقابل ذلك أعلامها في البحر الابيض المتوسط ، فاستعاد الداي مركز صيد المرجان من الانجليز وسلمه لفرنسا على سبيل الايجار ، غير أن الفرنسيين تدخلوا فيما بعد في شؤون الجزائر ، وأسرعوا لحماية الاسبان الضعفاء من الداي ، وذلك عندما استحكمت العداوة بين الجزائر واسبانيا . فاستولت الجزائر على عدة سفن اسبانية . فقد حدث ذات يوم أن استولى الجزائريون على سفينة أسبانية ، كانت في طريقها الى أسبانيا ، حاملة مؤونة وعتادا حربيا فرنسيا . فطلب قنصل فرنسا في الجزائر اعادة السفينة الى أصحابها ولكن الداي ، الذي كان مستاء جدا من مساعدة الفرنسيين للاسبان في كل شيء ، رفض اعادة السفينة وقال للمبعوث الفرنسي انه لا يستطيع أن يفهم كيف يسمح الفرنسيون لأنفسهم بالتدخل في الشؤون الجزائرية الاسبانية ، وكيف يرتكبون حماقة الادعاء بأنهم حراس الاسبان، وهم عاجزون عن تسديد ديونهم القديمة .

وألح الداي على مبعوث فرنسا في أداء الميونين وخمسمائة ألف فرنك ، التي بقيت في عنق فرنسا منذ السنوات الاولى للجمهورية ، حيث انها كانت قد اشترت القمح من الجزائر بواسطة التاجرين اليهودين باكرى وبوشناق. ثم توجه المبعوث بسؤاله عما اذا كان المبلغ المذكور الذي يطالب به مطلبا عادلا ، وعما اذا كانت الحكومة الفرنسية تنوي الاستمرار بلا حياء في تملصها من تسديد هذا المبلغ ، وهل يناسب تصرف الفرنسيين معه ما قام به هو نحوهم في مناسبات مختلفة ؟ فأجاب السيد دوفال بأن مطلبه عادل ، وأن حكومته تعترف به ، غير أن كثيرا من الشركات التجارية الفرنسية

تطالب اليهودين الجزائريين بمبالغ ضخمة ، ولذلك فان الحكومة الفرنسية قد احتفظت ؛ لكي تضمن مطالب تجارها ، بهذا المبلغ الذي هو مليون وخمسمائة ألف فرنك . فقال الداي ان الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تحمله مسؤولية تاجريه اليهوديين باكرى وبوشناق .

وطالب الداي بتسديد مبلغ آخر ، قيمته مليون فرنك ، بقي فى عنق فرنسا ، وحينئذ حاول القنصل تهدئة الداي ، متحملا مختلف الاعذار ، قائلا له انه لم تصله من حكومته حتى هذه الساعة تعليمات مفصلة بهذا الشأن . ويقال ان الداي قد غضب آنئذ (كان ذلك أيضا فى عيد الفطر من سنة 1827) وأهان المبعوث الفرنسي ، ومن جملة ما قاله له انه مضطر الى الاعتقاد بأن ملك فرنسا ومبعوثه يسخران منه ، ويستهزئان به ، وأن المبعوث مشارك لباكري فى جريمته متعاون معه فى مخادعته له ، وهو لذلك يظن أن المبعوث قد استلم مبلغ مليونين من الفرنكات نظير مساعدته لليهودي باكري (8) .

ولم يعلم أحد فى الجزائر شيئا عن التقرير الذي أرسله القنصل فى ذلك الحين الى فرنسا . وبهذا نشأ نزاع بين الداي والقنصل الفرنسي ، دام سنة كاملة ، وانتهى بالحادثة ، التي أشرت اليها آنفا ، فترك القنصل بعدها الجزائر . هذا ما استطعت التوصل الى معرفته فى وضعي السابق ، وكان الناس يتحدثون منذ مدة طويلة عن فرنسا ويقولون انها تنتظر الفرصة المواتية لارسال حملة ضد الجزائر ، واعلان الحرب عليها . وقد زاد ذلك من أملي ، اذ أصبح فى الامكان أن أتخلص من عبوديتي ، ولم يكن يهمني فى أي جانب كان الحق . كان المهم بالنسبة لي فى تلك الظروف اليائسة أن تتم الحملة فى أقرب وقت ، حتى أستعيد حريتي . وكثيرا ما كنت أتصور الاعلام

الفرنسية تخفق فوق قلاع الجزائر ، واسمع صخب الطبول الفرنسية في شوارع الجزائر الضيقة . وحين تهدأ أفكاري أقول لنفسي انه ليكفيني أن تسعى فرنسا ، اذا لم تتمكن من احتلال الجزائر تماما ، الى تحرير العبيد على الاقل كما فعل اللورد ايكسموث سنة 1816 ، وعندئذ تلذ لي الآلام .

الفصـــل السابـع

معركــة بــين الاسطولــين

بعد مغادرة القنصل الفرنسي للجزائر بمدة قليلة ، ظهر قسم صغير من الاسطول الفرنسي ، يتكون من أربع أو ست سفن حربية لمحاصرة ميناء الجزائر (9) . وكانت قطع من الاسطول الجزائري قد خرجت فى الليل لمطاردة السفن التجارية الفرنسية ، فاستولت عليها السفــن المذكــورة وحرقتها ، وسيرت نوتيتها الى فرنسا . ولما كان الآلاف من الجزائريين يسافرون سنويا الى الحج ، فانه كان على السفن الجزائرية أن تتولــى حملهم الى الاسكندرية . وفى ربيع 1828 سافر عدد كبير من الحجاج الى مكة والمدينة على ظهر سفينتين ، بارجة حربية وحراقــة ، ولكــن السفينتين اضطرتا للبقاء فى ميناء الاسكندرية ، لأن السفن الفرنسية كانت قد فرضت الحصار على الجزائر بعد اقلاعها منها بقليل .

وهكذا سد الفرنسيون فى وجه الجزائريين جميع طرق المواصــلات البحرية ، بحيث انه لم يحدث نقص فى المنتوجات الاروبية التي كــانت تستورد الى الجزائر فحسب ، بل ان السكان أنفسهم بــدأوا يتذمرون ويشكون من قلة الكسب ، وقد أصبح من كان منهم يعيش على النهب لا يجد ما يقتات به . فأمر الداي ، الذي لم يكن يخفى عليه تذمر الشعب ، الذي أصبح وجود السفن الفرنسية قذى فى عينه ، بتعبئة الاسطول لجزائري للهجوم على السفن الفرنسية المحاصرة . فجهزت بعد وقــت صير احدى عشرة سفينة جزائرية ، وبقيت فى الميناء تنتظر اشارة الداي

لبدء العمليات الحربية ، وكان قد صعد اليها عدة آلاف من السكان ، تطوعوا لمقاتلة الفرنسيين . وكان أهم هذه السفن بارجة حربية وحراقة ، أما السفن الباقية فكانت من نوع الشونــة والمراكب الشراعيــة ذات الصاريين (10) .

وفى ليلة مقمرة (كانت ليلة المولد النبوي التي ابتعدت فيهـا السفن الفرنسية قليلا عن الميناء) غادر الاسطول الجزائري شواطيء مدينــة الجزائر . وفى صبيحة اليوم التالي صعد أغلب أهالي المدينة الى السطوح لمشاهدة المعركة البحرية ، وصعدت أنا أيضا الى سطح القصر مزودا بمنظار مكبر . كان كل شيء متوترا ، ولم يكن يسمع أي صوت أو نأمة ، وقد استولى على المدينة كلها هدوء كهدوء الموتى ، وعندما بزغت الشمس من البحر فى روعة ، وبدأت تنشر ضياءها فوق المدينة ، سمعنـا هدير المدافع ينطلق من البحر ورأينا سفن الامتين تتجه نحو بعضها بعضا .

كانت قطع الاسطول الفرنسي تتألف من أربع سفن وبارجة حربية كبيرة وحراقة وسفينة شراعية ذات صاريين وشونة ، وكان قائد الاسطول على ظهر البارجة الحربية . وحين لمح ذات صباح السفن الاحدى عشرة على بعد منه ، وجه اليها اشارة برفع العلم وطلقة مدفع للسؤال عن هويتها ، ولكن الجزائريين لم يفهموا اشارته وأجابوه بعكس ما أراد تماما ، ولذلك سرعان ما عرف أنهم ليسوا أنجليزيين . مع أنهم كانوا قد رفعوا العلم الانجليزي لمخادعته والتغرير به . وأخذ كل من الجانبين يتلمس الوسائل اللازمــة للايقاع بالآخر ، ويسير ضد الريح يمنة ويسرة لبضع ساعات ، وكان كلاهما يحاول جاهدا منع الريح عن الآخر ، الى أن تم للفرنسيين فى النهاية ما أرادوا فاصطفت سفنهم وهاجمت الجزائريين الذين كانت صفوفهم لا تزال مضطربة . فترك لهم الفرنسيون الجانبين واخترقوا صفوفهم المضطربة ،

وإذا بسفينتين جزائريتين تبتعدان عن مكان المعركة ، غير أن السفن الباقية أحاطت بالفرنسيين واشتبكت معهم فى معركة حامية .

أحاطت بالبارجة الفرنسية أربع سفن جزائرية ، وبالحراقة سفينتان ، وبالمركب الشراعي سفينتان كذلك ، بينما هاجمت الشونة سفينة واحدة . كان الجزائريون يقاتلون بضراوة والفرنسيون بضراوة أشد ، وكان اطلاق نيران المدافع شديدا الى درجة أن السفن كانت فى الوقت الذي يصل الينا فيه دوي المدافع محتجبة باستمرار خلف ستار رمادي اللون ، لم يكن يقطعه سوى بريق المدافع ، فكانت السفن لا ترى الا اذا اهتم الفريقان بنشر القلوع وبددت الرياح سحب الدخان .

وقد امتازت سفينة جزائرية عن غيرها من بقية السفن الجزائرية ، كان يقودها المارق عمر ، رئيسي القديم (11) . ذلك أنه لم يقطع الريح عن الفرنسيين فحسب ، وانما هاجم أيضا بشونته الشونة الفرنسية وألحق بها أضرارا بالغة ، فحطم فيما حطم ساريتها الكبرى ، وشطر عجلة القيادة شطرين ، وكان قد عزم على الاقتراب منها واغراقها ، الا أن القائد الفرنسي أصدر الى سفنه اشارة الرحيل ، فانطلقت البارجة الفرنسية ، وهي تجر للشونة المحطمة ، والرياح الحادة تدفعها ، ولم تلبث أن اختفت .

وبعد أن دامت المعركة البحرية عدة ساعات واختفى الفرنسيون عادت السفن الجزائرية الى الميناء ، وقد ألحقت بأكثرها أضرار بالغة ، فأصيبت الحراقة بقذائف كثيرة فى قعرها ، فلم يكن فى الامكان امساكها فوق الماء الا بمشقة ، ولاقى النوتية عناء شديدا ، ومع أن عددهم كان كبيرا جدا ، فانهم لم يستطيعوا فعل شيء . وقد ثار الداي لذلك ، فاستدعى جميع القباطين ، وأغلظ لهم فى القول ، ورماهم بالجبن ، ويروي أنه قال لهم انه يميل الى قطع رؤوسهم جميعا ، لأنه لم يفهم كيف عجزت سفنه الاحدى

عشرة . التي كان يعدها من أشجع سفنه ، وهي التي لا تقهر ، عن الاستيلاء عن سفينة واحدة من السفن الفرنسية الاربع أو اغراقها على الاقل . واتهم قباطينه المقهورين استدرار عطفه ورحمته بالدموع قائلين له ان الاختلاف فى الرأي والتنافس كانا أيضا من الاسباب التي أدت الى هذه النهاية ، يضاف الى ذلك أن عددا كبيرا من المحاربين لم يكونوا من النوتية ، مما أدى الى انتشار الفوضى بينهم .

ومع أن السفن الفرنسية قد استماتت فى الدفاع فى هذه المعركة ، دون أن تستطيع الخروج منها منتصرة ، اذ غادرت موقع المعركة قبل السفن الجزائرية ، فان الفرنسيين قد أتاحت لهم شجاعتهم وفنونهم الحربية تغيير رأي الجزائريين فيهم ، فقد أدرك هؤلاء خطر عدوهم هذا . وبعد أن كانوا قد تعودوا على احتقار الكفار والاستهانة بهم ، لأن هؤلاء أتاحوا لهم مواصلة أعمال القرصنة ، عندما خابت مساعيهم فى القضاء على الاسطول الجزائري ، أصبحوا يحسبون لهم حسابهم . ولم يكن الجزائريون يعرفون أن التنافس بين فرنسا وأنجلترا هو السبب فى الفشل الذي منيت به جميع تلك المحاولات ، بل كانوا يعتقدون أن الكفار يخافونهم .

وبمجرد أن اقتنعوا بعكس هذا راحوا يهزؤن بالداي وبأسطوله ، وعندما علم الداي بمشاعر الشعب هذه ، أمر جواسيسه بأن يشيعوا بين الناس أن الفرنسيين قد هزموا تماما ، وأن الفضل فى نجاتهم يعود الى شهامة الجزائريين وتسامحهم ، ومع ذلك فهناك أمل فى القضاء على السفن الفرنسية واغراقها قبل أن تصل الى موطنها . وعلى الرغم من ضعف هذه الحيلة وتفككها ، قد حقق الداي هدفه الى حد ما ، اذ اقتنع القسم الاكبر بهذا ، ولم يسخر منه الا القليل من ذوي الوعي والتفكير . ومما قوى اعتقاد البسطاء بصحة ما قيل لهم أنه لم تظهر أية سفينة فرنسية أمام الشواطيء الجزائرية لمدة أسبوعين .

الفصـــل الثامـــن

حـــوادث أخـــرى

وبعد أسبوعين شوهدت ذات صباح ثمانية مراكب حربية فرنسية أمام ميناء الجزائر (12) . وقد تجرأ ربان احدى البوارج الحربية على ارسال زورقين كبيرين بهما بحارة الى النهر الذي يصب في البحر على بضعة أميال شرق يالجزائر لجلب الماء . ولما اقترب الزورقان من الساحل الجزائري هبت رياح عاتية ، فرمت بهما الامواج الصاخبة الى الشاطيء ، فاضطر النوتية الى النزول الى البر ، وقد وجدوا أنفسهم في موقف حرج للغاية عندما رأوا سفينتهم تبتعد مسرعة عن الشاطيء الخطر ، لكيلا يحدث لها ما حدث للزورقين فترتطم بالشاطيء ، ولم تكن الرياح والامواج الصاخبة لتسمح لهم بالتجديف خلفها ، ومما زاد موقفهم هذا حرجا أن وشكاتهم كان قد دخلها الماء ، فلم يعد في امكانهم استعمال بنادقهم ان حـــدث وهاجمهم سكان الجبال . وبينما هم يتشاورون فيما يجب عليهم أن يفعلوه، لاحظهم أحد الرعاة فأسرع الى الجبل لينقل الى القبائل (13) خبرهم . ولم يلبث الفرنسيون أن وجدوا أنفسهم محاطين بجمع كبير من القبائل ، وكان عدد النوتية الفرنسيين حوالي الثلاثين ، من بينهم ضابط ، وضابطان احتياطيان ونقيبان (14) .

وعندئذ أوضح الضابط لجنوده أنه من الافضل لهم أن يموتوا كفرنسيين شجعان أو يلقوا بأنفسهم في البحر على أن يقعوا أسرى . فما كان من النوتية الا أن هتفوا بصوت واحد « يحيا المحاربون الفرنسيون ! يحيا الوطن ! » فتشجع الفرنسيون وأسندوا ظهورهم الى جدار برج قديم ،

و تغزوا بهدوء وصوت القبائل اليهم . وبعد لحظـات هاجمهم حوالي حمسمائة من الرجال المسلحين ، فقاوم الفرنسيون بشدة ، الا أنهم سرعان ما أرغموا على التراجع الى البحر ، وذلك بعد أن قتل أغلبهم . فلما راى الضابط الفرنسي أنهم لا يستطيعون الثبات أمامهم ، ألقى بنفسه فى البحر وتبعه بحاران ، وبما أن الاول لم يكن يحسن السباحة ، فقد أخذه الآخران بينهما وسبحوا فى اتجاه سفينتهم التي لم تكن قد اختفت عن أنظارهم بعد ؛ فاستقبلهم زورق . أما الباقون فقد قتلوا بقسوة ، ولم يسلم منهم سوى شخص واحد وذلك بطريقة غريبة . فعندما أرادوا قتله أيضا ، أقبلت فتاة ، وهي ابنة أحد الشيوخ ، وأسرعت اليه ورمت فوقه منديلا ، ثـم تناولت يده وأخذته الى المنزل ، وكان قد جرح فى رأسه ويده اليمنى ، فوضعت له ضمادا ، وجلبت له بعد ذلك الخبز والعسل والحليب ، وعاملته بلطف وأمرته أن يأكل مما قدمته له . وحمل فى نفس اليوم الى الجزائر مع أربعة وعشرين من رؤوس زملائه القتلى . فاستدعاه الداي للمثول بين يديه ، وتأمله بدقة ثم أرسله الي لتضميد جراحه والعناية به (15) .

وفى استطاعة الانسان أن يتصور الحال الذي أصبحت فيه حين مثل الجريح المسكين أمامي . فمنذ أربع سنوات لم أر انسانا فى لباس أوربي ، وفجأة وقف أوربي غال أمامي . ــ وكيف كان منظره ؟ كان وجهه شاحبا كالجثة ومنتفخا ، وحول رأسه منديل ملطخ بالدم ، وكذلك حول احدى يديه التي كان يسندها بالاخرى ، وكانت ثيابه كلها متيبسة من الدم . واعتراني فى اللحظة الاولى ألم وفرح ودهشة فى آن واحد ، خـدرت أوصالي تماما ، فلم أجد لغة أحدثه بها . فأمرت الانكشاريين الذين جاءوا به الي بحمله الى غرفتي ، وسرت وراءهم ، وبعد أن أخرجت الفضوليين جلست قربه فوق الكنبة ، وأخذ كل منا ينظر الى الآخر فى صمت لمدة طويلة ، وشددت على يده باخلاص . وأخيرا قال لي بلهجة متألمة انه لا

يستطيع أن يفسر سلوكي معه ، وسألني ماذا أريد أن أفعل به . وعندئذ أخبرته من أنا وأني ساعتني به وأضمد جراحه ، فارتاح لذلك وضغط على يدي وشرع يبكي بشدة ، فعالجته وضمدت جراحه ، وقدمت له مشروبا باردا ، وواصلت معالجته فى غرفة أخرى لمدة عشرة أيام . وعندما شفي أمر الوزير بحمله الى أحد البساتين ، ومنذ ذلك الحين لم أره أبدا .

كان أسمه مارتان ، وكان فى حوالي العشرين من عمره . — أما رؤوس رفاقه فقد علقت أمام قصر الداي بالباب ، ولما عبث بها الناس توجه السفراء المسيحيون ، الذين تألموا لذلك المنظر ، واشتكوا الى الداي من تصرفات الشعب ، فسمح لهم بدفن تلك الرؤوس ، فجمعوها وفدوها بدولار لكل رأس .

ووصل فى ذلك الحين رسول من سلطان القسطنطينية الى الداي ، يأمره بأن يجهز له جيشا على الطريقة الاروبية قوامه أربعون ألفا ، ولكن الداي رفض القيام بذلك ، وقال للرسول ان احترامه لقوانين آبائه وتقاليدهم أكبر من أن يسمح له بتقليد تجديدات الكفار ، وأفهم الرسول بأن السلطان لا أمر له فى الجزائر وأن عليه أن يهتم ببلدانه . وهكذا لم ينجح الرسول فى مهمته وعاد خائبا . وقد سخط كل من الداي والانكشارية على السلطان وقالوا ان على الانسان أن يعتبر السلطان كافرا ، لأنه لا يقدس الدين الاسلامي كما يجب ، بل يتبنى تقاليد المسيحيين ، التي يكرهونها هم ، ويحاول نشرها فى البلدان الخاضعة لسلطانه .

وعندما نشبت الحرب فيما بعد بين الباب العالي وروسيا ، جدد السلطان طلبه ، وهدد الداي بأنه سينقم عليه اذا هو لم يرضخ لارادته ، وأخبره بأن فى استطاعته أن يغفر له خطيئته ان أقرضه سبعة ملايين قرش ،

الا أن الداي لم يوافق على هذا الطلب آيضا ، وآعلم الرسول بأن وضع خزاته فى الحالة الراهنة سيء للغاية ، وأنه فى حاجة الى أمواله القليلة ، خاصة وأنه فى حالة حرب مع فرنسا ، ومن المتوقع أن يبتلى بأسطولها بين يوم وآخر (16) .

وبعد ذلك بقليل سير محمد علي باشا سفينة شراعية مزودة بحوالي ثمانية عشر مدفعا من مصر الى الجزائر ، وأشار على الداي بالنزول عند رغبة السلطان بشأن تجهيز جيش واعطائه قرضا بمبلغ سبعة ملايين دولار ، وأن يتشبه بفرنسا ما أمكنه التشبه ، كما نبهه الى ضعفه وقوة فرنسا ، وعرض عليه وساطته ، غير أن الداي أبدى عنادا وصل الى حد لا يمكن تصوره ، فرمى بنصيحة محمد علي عرض الحائط ، وأساء معاملة قائد السفينة المصرية ، ومنعه ، مدة رسو السفينة فى ميناء الجزائر ، من دق الطبول والنفخ فى الابواق ، الامر الذي استاء له المصريون أشد الاستياء ، لأنهم قد تعودوا على التقاليد الاروبية (17) .

الفصـــل التاســـع

انشغالاتـــي

لكي أعود الى الحديث عن حياتي الاسلامية المسيحية، عن حياة العبودية الحرة . ينبغي ان أذكر أن حياتي كانت هادئة ، ولم أكن أشكو الا من السأم . وكان الامل فى الخلاص يلتهب من جديد ، وقد أصبح خيالـــي الخصب كبيرا ، فلم أعد أهتم بالاعمال الفكرية ، وذلك بسبب ما عانيته سابقا من آلام جسيمة ونفيسة . وكانت الاحداث الجديدة فى المدينـــة تصلني عن طريق الانكشاريين أو طريق خادمي البسكريين ، فتبعد عني السأم لمدة ساعة على الاكثر ، غير أني كنت أسلي نفسي بصنع أقفاص الطيور والسفن الحربية . وكان سافوبار المذكور ماهرا فى الحفر على الخشب ، فكنت أقدم له مختلف المشاريع ، فأنجزنا بعد عمل شاق دام ثلاثة أشهر آلة لم يسبق للجزائريين أن شاهدوا مثلها . وكانت هذه الآلة عبارة عن قفص طويل عريض ، به زغردة ، وقد ألصقت بنهايته خشبة ، بطرفها عجلة مسننة متصلة بعجلة أخرى ، تدير خشبة ثانية وهكذا . فكانت ثمة أربع عجلات اتصلت ببعضها بعضا ، تليها ثلاث خشبات ، وصلت بطرفها الاسفل أربعة أذرع متقاطعة ، فى كل منها بوق صغير .

وأثبتنا فى أرضية القفص آلة موسيقية ذات ثمانية أوتار معدنية لها طول القفص ، فكانت تشبه قيثارة مصنوعة من ألواح خشبية رفيعة ألصقت ببعضها بعضا بعناية كبيرة . وفى أعلى هذه الآلة فتحة ، مثلما هو الامر فى القيثارة ، تمر فرقها الاوتار الثمانية . وقد ركبت هذه الآلة بحيث تلمس هذه الاوثار الابواق الاربعة ، فاذا أدارها طائر (كان لنا عادة حسون

أو شرشور) اتصلت الخشبات بالاذرع الملصقة بالابواق ، فتصدر عنها نغمات مختلفة ، كانت جميلة رغم أختلاطها . فاندهش سكان القصر لرؤية هذا القفص ، ومنهم الخزناجي ، فقد أرسل القفص الى القصر ليتمكن من رؤيته نساؤه ونساء الداي ، فسررن به هن الاخريات . وأتيح لي فيما بعد أن أعرف من زوجة الوزير نفسه مدى اعجاب التركيات بقفصي فى ذلك الحين ، فقد ظل محل اعجابهن لمدة طويلة .

وهناك عمل آخر لم يكن أقل اثارة لاعجاب أهل القصر . ذلك أني صعدت الى سطح القصر ورسمت مدينة الجزائر ونواحيها فوق ورقة كبيرة ولونتها . وبينما كنت ذات يوم مشغولا بها أتى الوزير وقال لي : « لقد سمعت بعملك هذا فجئت لرؤيته . » ولم أكن ماهرا فى الرسم ، ومع ذلك فقد أعجب الوزير بالصورة أيما اعجاب ، فكان يهتف بين الحين والآخر « ما شاء الله ! ما شاء الله ! » ، وهذا يعني عند المسلمين : عظيم ، ممتاز ! وعرفت من اعجابه بعملي اليدوي وبالاعلام الجزائرية الحمـراء والخضراء ، التي كانت ترفرف فوق الحاميات ، أنه يهتم باللون أكثر من اهتمامه بالعمل نفسه ، فمفهومه للفن يقف عند هذا الحد . وتعجب مني لأني أمضيت وقتا طويلا فى رسم الدور والاشجار والسفن دون أن ينفد صبري ، فقلت له عندئذ بأني أفعل ذلك قتلا للوقت ، وفرارا من السأم ، وأعدت عليه مرة أخرى بأني لا أفتقد فى بيته الا الكتب ، ولا سيما الكتب الطبية الخاصة بالجراحة . فأجاب بأنه قال لي أكثر من مرة أنه لا يستطيع أن يحضر لي منها شيئا ، أما اذا كنت فى حاجة الى كتب عربية أو فارسية أو تركية ، فانه يضع تحت تصرفي الكثير منها . فنبهته الى أني قادر على الحديث بالعربية والتركية بطلاقة ، ولكني غير قادر على القراءة والكتابة دون أن يلقنني معلم مباديء هاتين اللغتين . وكان من دواعي سروري أن الوزير استجاب لطلبي فى الحال وأرسل الي معلما تركيا .

الفصل العاشر

معلمي

كان معلمي ، ويدعى يوسف خوجة ، قصير القامة ، ويبلغ من العمر أربعين سنة ، وقد سبق له أن تزوج ست مرات ، أربع مرات فى آسيا ومرتين فى الجزائر ، وكان له من هذه الزيجات ثمانية عشر ولدا ، يعيش منهم اثنا عشر فى تركيا وستة فى الجزائر . وكانت له مزايا جسيمة وعقلية ، تجعل الحديث عنه فى محله . لقد ذكر لي أنه ولد فى قرية صغيرة باقليم كرمان ، حيث كان أبوه يشغل منصب آغا ، وكان وحيد أبويه ، وماتت أمه وهو فى الثانية من عمره . وعندما بلغ سنه السادسة ، حرق أهالي القرية منزل والده فى ليلة من الليالي ، وذهب والده نفسه ضحية الجور والظلم ، فأخذه أحد أعداء والده الالداء وباعه لقافلة كانت فى طريقها من كردستان الى القسطنطينية . ولاحظ أنه لم يكن فى ذلك الحين يشبه القرجي الا بقدر ما يشبه القرد الملك ، اذ كان فى صباه قبيح الصورة الى درجة أنه كان قد عرف بقبحه فى جميع الامكنة التي حل بها .

واشتراه فى القسطنطينية معلم عجوز فقير ، فكان يقوم على خدمته لعدة سنوات ، يأخذه للنزهة ، ويهيء له القهوة والنارجيلة ، ويرافقه فى تنقلاته . وكان سيده ، فيما ذكر رجلا عالما تقيا ، يعيش من نسخ القرآن ومن الاشعار التي كان يكتبها ويكتسب بها . وبدأ يعلم يوسف فى سنه العاشرة ، فحفظه القرآن ، وقد اتبع معه لفرط حبه له الطريقة التركية فى تعليم الصغار ، فكان يقدم له عددا من الاوراق لحفظها فى الصباح ، فاذا

ينتهي منها عند الظهيرة . أثنى عليه أو أعطاه حبات من الزبيب أو من التمر أو من التين وقطعا من الحلوى . أما اذا لم يحفظ ما كتبه له كما ينبغي ، فانه كان يربط رجليه بحبل يتدلى من سقف الغرفة ، ويرفعهما عن الارض ثم يضربه بالفلقة فيما بين العشرين والخمسين ضربة . وحين ينتهي من ذلك يذكره بأن عليه أن يجتهد فى المستقبل بصورة أحسن ، ويطلب منه الا يغضب منه . فهو يفعل ذلك فى صالحه . ليستفيد منه فى دنياه وآخرته ، لأن البقع الزرق فى رجليه سوف تغدو فى الآخرة زهورا ينعم بها هو وسيده ! وفى النهاية يضيف قائلا : « لقد أمر الله نبيه بتربية أبنائنا على هذه الصورة ، لكي نخرج الشيطان عن أجسامهم . »

كان يوسف خوجة يتلقى مثل هذه الضربات مرارا ، وعندما تنتفخ قدماه ، يتوقف معلمه عن ضربه ، ويعاقبه بطريقة أخرى الى أن يندمل جراحه ، فيحبسه فى الغرفة ، حيث يقضي اليوم كله دون أن يأكل أو يشرب . وهذه هي على العموم الطريقة التي يتبعها الاتراك فى تعليم أبنائهم، أعني الذين يريدون منهم حفظ القرآن ، وهو عسير بالنسبة لهم ، لأنه كتب بلسان عربي ، يعتبرونه غريبا عنهم . ويتعلمونه فيما بين عشرة أشهر وستة عشرة شهرا ، اذ أن عليهم أن يعيدوا قراءاته الى أن يتمكنوا من حفظه . وفى هذا الوقت يعتري هؤلاء الحفاظ الهزال ، وخاصة ضعاف الاجسام منهم ، بحيث ان أكثرهم لا تتقدم به السن ، وفيهم من يقضي حياته كلها كسيحا .

لقد تعلم يوسف خوجة عند سيده العربية والتركية والفارسية كما تعلم قرض الشعر ، وبقي مع سيده وأستاذه عشرين سنة ، فلما مات هذا تزوج ، ولكنه عجز رغم اجتهاده وموهبته الشعرية عن اعالة أسرته ، فودع حريمه ورحل الى الجزائر . وعندما تعرفت عليه كان يعيش من جديد فى ظروف سيئة ، اذ كان قد تزوج امرأته الثانية وأصبح له ستة أولاد . وكان فى

وسعه نظرا لذكائه وموهبته الشعرية ومعارفه اللغوية أن يجمع مالا وفيرا فى الجزائر ، يعيش منه فى رغد وهناء ، لو لم تكن أعماله كلها تتسم بالفوضى . لقد كان ، كما لاحظت فيما بعد ، سكيرا من الدرجة الاولى ، حتى أنه كان يذكر الله ورسوله وهو سكران .

لم يكن طوله يزيد عن أربعة أقدام ، وكانت لحيته الكثيفة السوداء ، التي وقف شعرها عند ذقنه ، تخلع عليه منظرا غريبا . وكان يغطي رأسه بعمامة تركية كبيرة ، ويرتدي برنوسا جزائريا طويلا ، ينجر خلفه باستمرار. والاتراك يحافظون على النظافة عموما ، أما يوسف خوجة فلم يكن كذلك . كان علي فى كل مرة أن أطلب منه الدخول الى حمام القصر وارتداء ثياب نظيفة، وذلك قبل أن أسمح له بالجلوس فوق كنبتي ، ويطيب لي الاستماع اليه . وقد علمني فى مدة قصيرة مباديء العربية والتركية ، فأصبح فى امكاني أن أترجم بعض النصوص السهلة ، ودرست عليه حوالي تسعة أشهر ثم توقفت بسبب الفرنسيين . ولم أقتصر على تعلم اللغة منه ، بل تعلمت أيضا كثيرا من العادات والتقاليد الشرقية من خلال القصص التي كان يرويها لي فى فترات متفاوتة ، وقد رويت له بدوري كثيرا من الحكايات الاروبية .

لقد كان يوسف خوجة رجل دين ، ولكنه لم يكن له ذلك التعصب الذي يعرف به غيره عادة ، وقد شجعني على الحديث معه بحرية . فكان يطلب مني أحيانا أن أقدم له شراب جمايكا ، رغم تحريم الدين للشراب ، وكان على استعداد لشرب الخمر أيضا لو استطاع الحصول عليها . ويمكن أن ألاحظ بهذه المناسبة أن سيدي الخزناجي أفندي قد شرب الخمر والجعة طوال شهر رمضان سنة 1830 بناء على اشارة مني ، وذلك ليستعيد بعض قواه ، فقد كان الصوم والحراسة متعبين جدا فى هذا الشهر .

الفصـــل الحـــادي عشر

مصائر بعــض رفاقـــي

بعد أن عين لي معلم بمدة قصيرة ، فرق القدر بيني وبين خمسة من رفاقي ، مما جعلني أحس بوطأة العبودية . فقد فك صديقي الهولاندي ، الذي تلقى معي ضربات الفلقة ، قيوده ذات يوم بكلمات : لا اله الا الله محمد رسول الله ، وأرسل الى باي قسنطينة ، فوضع تحت تصرفه مالا ودارا بحديقة وعددا من العبيد ، وسمعت فيما بعد أنــه تزوج البنت الوحيدة لأمين بيت مال باي قسنطينة. وتبعه بعد مدة قصيرة سافويـار وأرسل الى وهران .

وكان بالقصر ثلاثة يونانيين ، سلبت منهم حريتهم قبــل ثلاث عشرة سنة ، وكان اثنان منهم من مدينة ازمير ، وهما الأب وابنه ، أما الثالث فأصله من جزيرة تينو ، وكان هذا ، ويدعى واصل ، فى الاربعين من عمره ، له خبرة كبيرة بأعمال الري ، ومد القنوات ، فقدم للجزائر خلال اقامته بها خدمات جمة . كان يبكي باستمرار زوجته وأطفاله الثلاثة ، الذين تركهم عند سفره صغارا . كان قد غادر بلاده ليقوم بسفرة تجارية فى جزيرة من جزر الارخبيل فوق عربة صغيرة ، فألقى عليه قرصان القبض وحمله الى الجزائر .

وكان الأب وابنه حلوانيين من مدينة أزمير ، وكـان الأب ، ويدعى ايفان ، رجلا طيب السريرة ، وهو شيخ وقور فى السادسة والسبعين من عمره . أما ابنه فكان جلفا قاسيا ، أبرز صفاته قلة النظافة وعصيانه لأوامر

وولده . وكانت قصتهما كما يلي : كان قصر الداي او قصر الوزير فى حاجة الى حلواني ماهر . فكلف لذلك قائد احدى السفن ، كان فى طريقه الى ازمير . بأن يجلب معه منها حلوانيا ماهرا . وعندما رسا بمينائها ، دبر مكيدة للرجل وابنه من أجل احضارهما الى السفينة ، فقد قال للرجل العجوز ان لديه قنطارا من العسل فوق متن السفينة ، يريد أن يبيعه له بثمن رخيص ، وطلب منه أن يحضر الى السفينة ليتأكد من ذلك بنفسه . فسار معه ايفان بحسن نية ، وأخذ معه على عادته ابنه ، وبذلك وقعا فى أسر قائد السفينة .

ومرض الشيخ ايفان ذات مرة مرضا خطيرا ، كان هو نفسه يشك فى النجاة منه ، فاعتنيت به وحاولت أن اعالجه واعيد اليه صحته ، فلعل الظروف تسمح له بالعودة الى وطنه . كنت أود له ذلك من كل قلبي ، مع أني أنا شخصيا لم يكن لي أمل فى الخلاص الا فى الحملة الفرنسية المحتملة ، وهو أمر لم يكن متوقعا فى وقت قريب . وعندما كنت أفكر ذات يوم فى مصير صديقي الشيخ ايفان خطر لي خاطر ، وهو أن فى امكاني أن أسعى لاطلاق سراحه . وكنت قد وجدت وسيلة لذلك ، لن يتضرر منها أحد فى حالة ما اذا فشلت ، فقررت أن أحاول وأجرب حظي . كان قد سبق لي أن طلبت من الوزير اطلاق سراحي عدة مرات،ولكني كنت أتلقى منه دائما جوابا غير أكيد ، فيقول لي ان ذلك ليس ممكنا فى الظروف الراهنة . وفى احدى هذه المرات قلت لنفسي انه على استعداد للاستجابة لأي رجاء آخر ، وأنه سيطلق سراحي بمجرد أن يعثر على طبيب يحل محلي .

وحدث بعد ذلك أن مرض الوزير نفسه ، فأشرت عليه بأن يستحم بأراق بعض النباتات ، ثم حدثته عن الشيخ ايفان وقلت له انه مريض مرضا شديدا ويود من كل قلبه أن يسمح له بالعودة الى بلاده ، وذكرته بالخدمات التي قدمها للجزائر هؤلاء اليونانيون منذ ثلاث عشرة سنة ،

قضوها في الاسر ، وبينت له مدى سهولة اطلاق سراحهم . واضفت قائلا ان اطلاق سراحهم سيضمن له مكانا في الجنة وأن رب العالمين سيستجيب لدعاء هؤلاء الاشقياء له بالخير والصلاح . وعندئذ بدا عليه الارتياح لحديثي هذا ، غير أنه لم يجبني عليه ، فقد كان يفكر في أمر آخر . وعدت الى الحديث نفسه فيما بعد وأنا أكثر ثقة ، فقال لي حينئذ في شيء من القلق انه سيحدث الداي بهذا الصدد بعد أن يشفى من مرضه .

وأسرعت الى اليونانيين وأخذت أحدثهم في سرور عن الحديث الذي أجريته مع الخزناجي أفندي بشأنهم ، فتأثر الشيخ ايفان تأثرا كبيرا ، وأشرق محياه ، وارتسم على أساريره ما في ضميره من صفاء ونقاء ، والتفت الي وقال في زهو : « حمدا لله وللمرأة التي ولدتك . لقد تعذبت أنت الآخر ، يا بني ، وعليك أن تتجمل بالصبر ، فان الله سينجيك أيضا عن قريب ، ويجازيك عن كل آلامك الماضية ، ويهيء لك هناء تحمده عليه ».

تأثرت لهذا الحديث الذي فاه به اليوناني التقي ، بحيث اني لم أكد ألاحظ الفرحة التي بدت على وجهي الشابين واصل وماشل . لقد كانا يثبان حولي ويقبلان رأسي وثيابي . أيتها الحرية ، من يستطيع أن يتصور عظمتك وأنت تخترقين روح العبيد كالتيار الكهربائي ؟

وبعد أن مضت بضعة أيام على الحديث الذي أجريته مع الوزير بشأن اليونانيين استدعاني اليه ، ولما مثلت بين يديه ، سألني ترى ماذا سيفعل اليونانيون لو أنه أطلق سراح الشيخ ايفان ومهندس الري ماشل ، وأرسلها الى تونس ليتمكنا من الابحار منها الى أزمير بسهولة ، واحتفظ في مقابل ذلك بواصل بن ايفان ، فأجبته بأن ذلك في اعتقادي غير ممكن ، لأنه من المستحيل على الشيخ ايفان أن يقوم برحلة طويلة على ظهر بغل دون مساعدة ابنه ، ثم انه لن يتخلى عن ولده . وزدت على ذلك قولي : « لقد أحسنت ،

يا مولاي ، فليكن احسانك كاملا ! لو فعلت هذا لكانا أشقى مما كانا عليه فى السابق . »

وصرفني وأمر قيم القصر باستدعاء اليونانيين الثلاثة ، فخفوا اليه ، وأسرع الشيخ ايفان الى غرفة الوزير ، فكرر على سمعه ما قاله لي ، وهم سجود بين يديه ، فتعلق الشيخ برجليه ، وراح يبكي بصوت عال ، طالبا منه أن يترك له ولده وسنده الوحيد . وفى هذه اللحظة دخل أحد كتاب الوزير ، وهو تركي طيب القلب ، الى الغرفة ، فأثرت فيه دموع الشيخ ، وتوسل بنفسه الى الوزير أن يطلق سراح الابن أيضا ، فرق قلب الوزير ، واستجاب لرجاء الشيخ وقدم له بأمر من الداي كيسا ، يحتوي على ثلاثمائة دولار أجرة للسفر. فشاركناهم فى فرحتهم، الا أن أيا منهم لم تبلغ بهجته ما بلغته بهجتي أنا الذي تحققت أمنيتي . وبقوا معنا عدة أيام ، ثم توجهوا فى النهاية الى القافلة التي مضت بهم الى تونس . كان الوداع مؤلما بالنسبة لي ، فقد فقدت بذهاب ايفان صديقا حميما ، وناصحا أمينا ، ورجلا طيبا حكيما . وكنت أشعر بالحنين اليه لمدة طويلة ، ولا أزال حتى الآن أتذكر محبته ومودته .

الفصـل الثانـي عشر

أحداث وقعت فى الجزائـر

لابد أن أتعرض الآن لأحداث أهم مما كنت بصدد الحديث عنه . ففي أول شهر أوت من سنة 1829 رست بميناء الجزائر سفينة فرنسية تحمل الـراية السلمية البيضاء وعلـم الـداي (18) . وكـان على ظهرهـا دي لابروتونير الذي وصل الى الجزائر مبعوثا مـن قبـل الحكومـة الفرنسية ، ليعرض على الداي شروطا معينة للصلح . فذهب مرتين الى القصبة لمقابلة الداي ، الا أن مطالبه ما كانت لتحظى بموافقته ، ولذلك رده خائبا وبشيء من الحدة (19) .

وعند ظهيرة يوم 10 أوت استعدت السفينة السليمة لمغادرة مينـاء الجزائر ، الا أن الرياح لم تكن مواتية ، فأرغمتها على الاتجاه صوب الحامية الجزائرية ، وقد طويت أشرعتها كلها وكمت فوهات مدافعها (20) وكانت الاعلام ترفرف فوق مؤخرتها وفوق جميع صواريها ، اعتقادا منها بأنها تستطيع أن تسير تحت حمايتها . وكنت آنئذ فوق سطح القصر والمناظر المكبر فى يدي ، فشاهدت السفينة تقترب من المواقع الدفاعية الجزائرية ، فصدرت عن وحدات الاسطول الجزائري عدة طلقات نارية (انذارا للسفينة بعدم الاقتراب من مواقعها) ، وكان المفروض أن تتوقف السفينة عن السير ، ولكنها لم تعبأ بذلك الانذار الذي وجـه اليهـا ، واستمرت فى سيرها الى أن أصبحت تحت خطوط الحامية ، فوجهت اليها هذه ثلاث طلقات أخرى منذرة اياها محذرة . وعندما رأى الجزائريون

أن الفرنسيين لا يهتمون بذلك أدنى اهتمام ، صوبوا نحو السفينة بضع قذائف . ولما لم تفد هذه أيضا ، راحت الحامية الجزائرية تمطرها حمما ، وشاركت فى ذلك المدفعية الثقيلة (21) .

وكان من حسن حظ الفرنسيين أن سفينتهم كانت قريبة جدا من مواقع المدفعية الجزائرية ، فكانت القذائف تمر فوق رؤوسهم دون أن تلحق بهم ضررا كبيرا ولم يرهب الربان الفرنسي تلك القذائف ، بل أمر بحارته بالصعود الى ظهر السفينة ، وأمر بكل تحد وتبجح وفخفخة أن تسير سفينته عبر القذائف المتساقطة كالمطر . وبقيت المدفعية الجزائرية تصب حممها فوق السفينة الفرنسية على طول الساحل بقدر ما تصل اليها قنابلها ، واستمر اطلاق النار حوالي ثمان وعشرين دقيقة .

وقد صعد الجزائريون كلهم تقريبا الى سطوح منازلهم وتجمعوا فيها أثناء ذلك ، وكان منظرهم شيقا جدا ، فقد استطعنا من قصرنا ، الذي يقع فوق الهضبة ، ومنه تنحدر مدينة الجزائر نحو الساحل بين عدد من التلال ، أن نرى المدينة كلها تقريبا . كانت سطوح البيوت البيض مغطاة بالبشر ، فكنا نرى جمعا من الاتراك بثيابهم الخضر والحمر والصفر ، وعمائمهم المطرزة بالذهب ، وقد سطعت الشمس فوقها ، فالتمعوا فى كل مكان ، بينما كان العرب ملتفين فى برانس بيضاء وسوداء . وهنا وهناك كنا نرى أسرابا من النساء ووجوههن مقنعة بالفوطة ، من غير أن يهتممن ببقية أجسامهن وهن ملتفات فى الحائك . ولمحنا الى ذلك عددا من اليهود رجالا ونساء وأطفالا فى القسم الاسفل من المدينة ، وقد ارتدوا ثيابا سوداء أو زرقاء غامقة ، يضطربون هناك دون توقف كالنمل . وكان الصخب يتعالى بلغات مختلفة ، معبرة عن آراء وتصريحات ، اهتممت بها كل الاهتمام ، لأني أصبحت أفهمها . وقد اجتمعت الآراء كلها تقريبا على

تحطيم السفينة الفرنسية بكل من فيها . فمن واجبهم القضاء على الكفار واهلاكهم .

ولا مناص لي أن أذكر بصدد هذه الحادثة أيضا أن الداي قد أقال وزير الشؤون البحرية ، وولى مكانه آنئذ انكشاريا سافلا ، وذلك ليبريء نفسه مما جناه غيره من الاتراك ، وليعلو اسمه بين الاروبيين كما لو أنه لم يصدر أوامره باطلاق النار على السفينة . ولما نفى وزير الشؤون البحرية ، سخط على الداي أصدقاء الوزير وازدادوا له كرها ، الا أن أحدا منهم لم يجرؤ على التصريح ببراءة المطرود ، ما عدا حسين الشهم ، زوج ابنة الداي ، فقد أكثر الشكوى من الظلم الذي حل بالوزير ، واتهم الخزناجي أفندي والآغاء أفندي (وكان هذا الاخير صهرا للداي أيضا) بأنهما سبب هذه المحن كلها ، فقد عملا على اسقاط عمه يحي آغا ، الذي كان يشغل منصب وزير الحربية طيلة عشر سنوات ، خدم خلالها الداي بكل اخلاص ، وكانا بالاضافة الى ذلك سبب هذه الحرب مع فرنسا ، فهما اللذان أشارا على الداي بضرب السفينة الفرنسية السلمية .

ومن الملاحظ هنا أن حسينا ينتقد أعمال هذين الافنديين ، مع أن أحدهما عديله ، ويرى فيهما قاتلي عمه الحبيب ، وهو على حق فى ذلك ، كما سأتحدث عنه بعد قليل . لقد شكا الوزيران أمره الى الداي وأثاراه ضده ، فسخط عليه وأمر بأن تطلق ابنته من حسين فى الحال وتبعد عن حريمه . وكان حسين المسكين آنئذ فى العشرين من عمره ، وكان قد تزوج ابنة الداي الثانية بواسطة عمه يحي ، الذي كان فى ذلك الوقت آغا أفندي ، وحسين لم يتجاوز بعد سنه الثانية عشرة . وها هو الآن يبعد عنها بالقوة ، ولم يتراجع الداي عن قراره ولا تخلى عن عناده وتصلبه رغم نواح ابنته وعويل بقية النسوة وتوسلات بعض أصدقاء حسين اليائس . ان كبرياء الداي لم يسمح له بالتراجع فى أمر أصدره مهما بلغت قسوته ،

فقد تعود أن يردد أن ما لفظه السلطان لا يمكن أن يبلعه ثانية . وسلم لحسين مبلغ كبير أجرة لسفره ، وأرسل ارضاء لحاسديه ومطارديه ، الى تونس ليبحر منها الى القسطنطينية .

لقد تألمت لمصير حسين أشد الالم ، خاصة وأني كنت قد تعرفت اليه على الصورة التالية : كان قد جرح نفسه ذات يوم فى راحة يده بقطعة من زجاج فجاءني ودماؤه تسيل ، فضمدت جرحه وعالجته الى أن برىء منه . وما أكثر ما كان يزورني فيما بعد ويقيم معي ساعات طوالا ، وقد حدثني عن عمه أكثر من مرة . ومع أن الاتراك يتجنبون أساسا الحديث عن الحريم ، فان حسينا كان يحدثني عن سعادته بزوجته الشابة وعن الحب المتبادل بينه وبينها . وكان يعيد علي مرات عديدة أن سعادته ستكون أكمل لو أتيح له أن يسلم من معاكسات أعداء عمه وتعرضهم له فى كل مناسبة . وينبغي أن أعترف أني اعتبرت حينئذ شكواه وهما أكثر منها حقيقة ، وقد قلت ذات مرة مازحا ومعزيا فى نفس الوقت :

ــ هديء من روعك ! سيكون فى مقدورك ، حين تصبح باشا الجزائر ، أن ترسل كل أعدائك الى تركيا حتى تسلم من أي ضرر يمكن أن يلحقوه بك ، وتعيد الي حريتي أيضا لأكون جراحك الخاص .

فأجابني فى خوف بأنه لا يمكن الحديث عن ذلك الآن ما دام حموه على قيد الحياة ، ثم أضاف قائلا :

ــ اذا حدث ما تقول ، فلسوف يبهجك أن تكون قد تعرفت الي ، لأني سأرفع منزلتك فوق الجميع ، ولكي أطمئن عندئذ يجب أن تضع عمامتي فوق رأسي وتصبح وزير ماليتي .

ولكم ضحكنا فيما بعد على أفكارنا هذه ، التي ترسم فى سجل أقدارنا . وبعد أن ترك الشاب حسين الجزائر بأشهر ، زوج الداي ابنته ، وهي لا

تزال حزينة على زوجها ، من وكيل الخرج الجديد ، المدعــو مصطفى .
ليطرد ذكرى حسين عن قلب ابنته . وهناك دليل آخر على مدى خضوع
الداي لما يشير به عليه وزراؤه ، هو أن تصرفه هذا قد أثار أحقاد عدد كبير
من الانكشارية عليه فضلا عن أصدقاء وزير الحرب القتيل ، وأصدقاء
وزير البحر الطريد ، الذين قرروا فى الخفاء أن يثأروا من الداي حسين
باشا ثأرا فظيعا (22) .

الفصـــل الثالث عشر

الاستعدادات للحـــرب

كان الداي قد خصص مرتبات لعدد من الجواسيس فى كل من ايطاليا ومرسيليا وطولون وباريس ، فنقلوا اليه ذات يوم خبرا مفاجئا ، وهو أن فرنسا تعد أسطولا رهيبا لارساله ضد الجزائر ، وقد أكد صحة هذا الخبر سفينتان جزائريتان ، أستطاعتا أن تتسللا ليلا بين السفـــن الفرنسيـــة المحاصرة ، كانت احداهما تحمل العلم الانجليزي والاخرى العلم الايطالي ، ويتألف هذا الاسطول من مائتي سفينة حربية وخمسمائة سفينة تجارية ، على متونها أربعون ألف جندي ، سينزلون الى البر ، ومن ضمن هـــذه الاخبار ، أن الاسطول سيبلغ الشواطيء الجزائرية فى شهر ماي 1830 ، وأنه سيرسو على الارجح غربي الجزائر فى شبه جزيرة سيدي فرج . وكان هذا الخبر مبعث ذعر وفزع بالنسبة للجزائر كلها ، فأسرع الداي بارسال الرسل الى البايات والى شيوخ القبائل ، يخبرهم بقرب نزول القـــوات الفرنسية الى البر ويأمرهم بالاستعداد لمساعدته عند حاجته اليهم .

وقد ارتكب الداي ، فى اعتقادي ، أخطاء كثيرة آنئذ ، منها أنه كان يعتد بجيشه الاعتداد كله ، ويستهين بقوة فرنسا البرية ، فلم يعمد الـــى تنظيم وسائل الدفاع عن عاصمة البلاد من الجهة البرية ، فكان أن بقيت مكشوفة تماما . وقد وصل به عماه الى الحد الذي أستيقن معه أنه لا يمكن التغلب عليه فى قصبته وأن باستطاعته أن يساجل الاعداء سنوات عديـــدة .

وتبعا لاطمئنانه الوهمي واقتصاده البالغ فاته أن يعد جيشا ليتمركز حون المدينة ؛ وترك تلك الفرق ، التي كان عليها أن تقاتل الفرنسيين عند نزولهم الى البر ، تقيم على مسافة من الجزائر تتراوح بين خمس وعشر مراحل ، وكان ذلك من حسن حظ الفرنسيين ، كما سنرى فيما بعد . اما الاحتياطات الوحيدة ، التي اتخذت على الجانب البري ، فهي أن الآغا افندي أمر باضافة بعض المدافع الى حامية سيدي فرج ، وأرسل اليها بضع مائات من الجنود ، كما أقام مخازن للحبوب من القمح والشعير فى المدينة وما حولها ، تتسع لحوالي مائة وثمانين ألف مد . أما الجهة البحرية فقد حظيت بعناية أكثر ، وخاصة الميناء . فقد كانت الحاميات والمواقع الدفاعية تمتد على الشاطيء من الشرق الى الغرب بمقدار ست ساعات ، وتحتوي على بضعة آلاف من المدافع الثقيلة ، وكانت مزودة بكل ما يلزم من الرجال والذخيرة .

وأقيمت كذلك ثلاث سلاسل قوية متينة قرب الساحل داخل الميناء ، وكانت السفن الحربية راسية خلفها فى مأمن ، وأمامها خمسون زورقا ، ثمانية منها مزودة بالقذائف والباقية بالمدافع ذات العيار الثقيل . وقد وقف أغلب أفراد الشعب بجانب الداي ، باستثناء نواحي البليدة (23) ، فالامر هناك لم يكن كما ينبغي . والسبب فى ذلك أن قائدها كان قد ألقى القبض على اثنين من مشائخ القبائل ، الذين كانوا يسكنون الجبال المجاورة ، وسجنهما فى مدينة البليدة ، فثارت بلاد القبائل ، وسار رجالها مدججين بالسلاح الى البليدة ، وأخرجوا الشيخين من السجن بالقــوة . فغضب الداي وأراد فى بداية الامر معاقبتهم على هذا الاستبداد فى الرأي دون الرجوع اليه ، الا أن القبائل ازدادوا عنادا وتحديا من يوم لآخر . وفى النهاية هددوه بأنهم لن يساعدوه ضد الفرنسيين ، ان هو استمر فى معاملته

لهم بهذه الشدة ، فارتاع الداي لذلك وراح يعزف على وتر آخر ، فلم يكتف بالعفو عنهم ، بل أهدى أيضا الى بعض شيوخهم سيوفا فاخرة وبرانس حمراء .

كانت هذه هي الاوضاع في مدينة الجزائر ، وذلك عندما حمل جاسوس في أوائل شهر ماي سنة 1830 أخبارا ، مفادها أن أسطولا فرنسيا ، يزيد عن ستمائة سفينة ، قد غادر ميناء طولون . فأذاع الداي بعد ذلك في المدينة ونواحيها أن أسطول الكفار في طريقه الى الجزائر الغالية على المسلمين جميعا ليهاجموها ويركزوا صليبهم في أماكن الهلال ومواضع راية الاسلام المقدسة ، وطلب من المواطنين ألا يرهبوا قوة الفرنسيين ، وأن يكون اعتمادهم على الله ورسوله .

وبهذه المناسبة سمح الداي لجميع العرب والقبائل بحمل السلاح ، الذي كان محرما عليهم حمله سابقا ، وأخبرهم أيضا بأنه سيأمر ، بمجرد مشاهدة الاسطول الفرنسي ، بأن تطلق المدفعية طلقتين اثنتين ، ليسرعوا الى الحيلولة دون نزول الكفار الى البر ، أو اعاقتهم عن ذلك على الاقل (24) .

الفصــل الرابــع عشر
حادثة المركبين الفرنسيين

كان الاسطول الفرنسي قد غادر ميناء طولون فعلا ، غير أن الريـاح العاتية ورداءة الاحوال الجوية قد فرقته وبددت شمله ، مما أضطر أغلب السفن الى الرسو بموانيء مايوركا ومينوركا . وقد حدث أن اقتــرب مركبان شراعيان فرنسيان (25) ، كانا قد ترافقا ، من الساحل الجزائري فى أثناء العاصفة ، فارتطما فيه بقعر البحر ، وكان الذنب فى ذلك ذنب العاصفة بقدر ما هو ذنب بعض ضباط البحرية . ذلك أن المركبين كانا يســيران أحدهما خلف الآخر ، يكاد يلاصقه ، بحيث انه حين اصطدم الاول بقعر البحر ، لم يبق للثاني وقت كاف للابتعاد أو لطي القلوع فكان أن اصطدم بدوره بالقعر ، واختفى الامل فى النجاة . وكانت الرياح العاتية قد طوحت بهما الى مكان ضحل جدا ، الى درجة أنه أصبح من المستحيل الابحاو حتى فى حالة هدوء البحر .

ولما نزل النوتية الى البر ، وكان عددهم يناهز المائتين ، وجدوا أنفسهم عند شبه جزيرة تقع شرقي الجزائر على بعد خمس ساعــات ، وأخــذوا يتشاورون فيما يجب عليهم فعله ويتساءلون هل من مصلحتهم أن يتجهوا فورا الى الجزائر ، أم من الافضل لهم أن يبقوا مكانهم الى أن يسمــع الداي بما حدث على ساحله ، ويأمر باحضارهم الى الجزائر ، فاستقــر رأيهم لسوء طالعهم على الامر الاخير . فقد لاحظهم فى صبيحة اليوم التالي ما يزيد عن ألف قبائلي ، ثار فيهم حب الانتقام ، فأحاطوا بهم وهم يهتفون « الموت للفرنسيين الكافرين (26) . »

وكان بين الفرنسيين مالطي ، يعرف لغة القبائل ويحسن التحدث بها
[illegible] . ولكي يضمن النجاة للفرنسيين أو يسد فى أجلهم الى حين على
[illegible] . انبرى للقبائل وأخبرهم بلغتهم أن المركبين ليسا فرنسيين ، وانما
هما انجليزيان ، وما دام الجزائريون أصدقاء للأنجليز ، فـان النوتيـة
الانجليزيين الراسين يطلبون منهم أن يقودوهم ، دون التعرض لحياتهم
بسوء ، الى القنصل الانجليزي والى الداي القاهر ، وسوف يجازيهم ملك
الانجليز على عملهم هذا خير جزاء . وعندئذ استبدت الحيرة بالقبائـل
قليلا ، وتبادلوا الآراء فيما بينهم ، وأخيرا نادوا المالطي وأخبروه بأنه لن
يحدث لهم شيء ما داموا أنجليزيين .

وبعد ذلك أقبل شيوخ القبائل على الفرنسيين ورحبوا بهم فى لطف ، ولكن مع شيء من سوء الظن والارتياب . وسلم الضبـاط الفرنسـيين سلاحهم اليهم ، وحملوا الى قرى القبائل ومساكنهم ، حيث قدم لهـم القديد والخبز والزيتون والتمر والتين . ثم رأسل القبائل رسولا راكبا الى الجزائر ليخبر الداي بوصول الانجليز ، الا أن هذا الرسول على ما قيل فى الجزائر ، لم يستطع عبور وادي بوبارك (27) بسبب ارتفـاع مياهه ، فاضطر الى الانتظار يوما كاملا الى أن رأى بعض العرب فى الجهة الاخرى من الوادي ، فأخبرهم بالامر وطلب منهم أن يبلغوه الى الداي .

وعندما علم الداي بذلك ، لم يشك لحظة واحدة فى أن ذينك المركبين اللذين دفعا الى الشاطيء فرنسيان . وقد ابتهج لذلك المسلمون جميعا وفرحوا بأن يكون الحظ بجانبهم لا بجانب الفرنسيين ، ورأوا فيـه غضب الرسول على الكفار ، وراحوا يحلمون بسلسلة من الانتصارات الرائعة . وأمر الداي الآغا أفندي بارسال ضابط فى نفس اللحظة لحمل الفرنسيين اليه ، فسير الآغا الشاوش باشي (28) (الجـلاد الاول) ، المدعو حسن ، فسار هذا ووصل الى الوادي فى اليوم الثالث بعد اندفاع

مركبي الفرنسيين الى الشاطيء . فاخبر القبائل بوصوله وامرهم بجلب الفرنسيين اليه ، الا أن خبره هذا لم ينقذ الا حياة النصف منهم .

ففي اليوم الثاني لاصطدام المركبين بالقعر قسم الفرنسيون من طرف القبائل قسمين لاسباب لم تعرف ، وحمل بعضهم الى قرية بعيدة داخل الاراضي الجزائرية (29) . غير أنه حدث فى اليوم الثالث ، وذلك عندما كان القبائل منشغلين بانقاذ أشياء مختلفة من المركبين اللذين كانا على وشك الغرق ، أن ظهرت سفينة فرنسية قرب ذلك المكان ، وراحت تقذف القبائل بشدة ، فأصيب ابن أحد الشيوخ اصابة قاتلة ، فشمل القبائل البكاء والعويل بشكل رهيب ، واندفعوا الى قريتهم لينتقموا من الفرنسيين ويشفوا غليلهم منهم ، فانقضوا على الاسرى وأتوا على حياتهم ، فلم يسلم منهم سوى فرنسيين ، ضابط وملاح ، كانا محبوسين فى غرفة ، ليتولى اعدامهما ثلاثة من أبناء القبائل ، الا أنهما كان لهما فى تلك اللحظة الحاسمة من حضور البديهة ما مكنهما من أن يتسلحا ، أحدهما بفأس والآخر بقدوم ، ويقتلا الرجال الثلاثة . واستطاعا الهروب الى الغابة ، فسارا فى اتجاه الجزائر ووصلاها بعد أسبوع سالمين (30) .

ولما سمع سكان القرية الاخرى ، التي يوجد فيها بقية الاسرى ، فى المساء بما حدث ، أرادوا أن يفعلوا بهم ما فعله جيرانهم بالآخرين ، وتشاوروا فى ذلك طويلا ، وسألوا المالطي مرات عديدة عما اذا كانوا أنجليزيين حقا ، ووضعوا السكين فى عنقه ، ولكنه ثبت على ما قاله أولا . وبينا هم فى ذلك اذ وصل الرسول الذي وجهه اليهم الشاوش حسن ، فوضع حدا لحيرتهم ولخوف الفرنسيين، فأخذ هؤلاء الى وادي بوبارك ، الذي كان ، كما قيل ، قد رجع الى مجراه وأصبح فى الامكان عبوره ثانية دون خطر ، فاستقبلهم الشاوش حسن ، وأحضر لهم البغال وحملهم الى الجزائر .

وكان الشعب قد اصطف على أرصفة الشوارع لرؤيتهم ، وما أن
اقتربوا من المدينة حتى آحاط بهم الآلاف من السكان ، وهم يهتفون
باللغة العربية : « الخير والنصر للمسلمين والشر والموت فى دشمن
(للأعداء) » واشتد حماس الجماهير وبهجتها ، وارتفعت الضجة فى كل
مكان ، واقترب البعض من الفرنسيين ، وازدحموا حولهم ، بحيث لم
تتمكن بغالهم من السير ، وتعرضوا هم أنفسهم لشيء من سوء المعاملة .
ووصلت فى تلك اللحظة فرقة من الانكشارية ، وراحت تضرب بعصيها
على رؤوس الجزائريين السود العارية ، ففقد هؤلاء الرغبة فى الصياح
والهتاف وانفلتوا هاربين .

وحين وصل الفرنسيون الى المدينة ، حملوا الى بيت واسع ، يسمى
طبرنة ، كان قبل مدة مقاما للأسرى المسيحيين ، ثم اكتراه اليهود ليهيئوا
فيه نبيد التين . ولما كان القبائل قد سلبوا الفرنسيين ثيابهم ، بحيث ان
بعضهم وصل عاريا تقريبا ، فقد قدمت لهم بناء على أوامر الداي ألبسة
الاسرى ، كما قدم لهم صباحا ومساء طعام هزيل، مما يتناوله الانكشاريون
فى الثكنات ، لا يستطيع الانسان استساغته الا بجهد جهيد . وبعد ذلك
كان القنصل السرديني القائم بأعمال فرنسا طيلة قنصلها يرسل اليهم
بموافقة الداي بين الحين والآخر قليلا من المال ، ليشتروا به طعامهم ممن
حولهم من اليهود . (31) وفى نفس ذلك اليوم أحضر القبائل رؤوس
زملائهم لبيعها للداي . وكان عددها حوالي ثمانين رأسا ، وضع بعضها
فى أكياس وبعضها الآخر شد بحبال فوق البغال والجمال . وعندما وصلوا
الى القصبة أمر الداي باعطائهم مائة دولار لكل رأس . وصففت الرؤوس
فى الساحة الصغيرة أمام القصبة ، فتقاطرت الآلاف من الجزائريين بدافع
الفضول لرؤيتها . ولما وصلت درجة الحرارة الى 40 درجة أمر الداي ،

بعد أن تصاعدت منها الروائح الكريهة ، بحملها الى باب المدينة ، فحملها الشعب الى هناك ، فاشتراها منه الانكشاريون ، الذين يقومون بحراسة منزل القنصل السرديني ، ودفنوها .

هذه هي قصة المركبين الفرنسيين كما رويت فى الجزائر ، ولعلها عرفت على هذه الصورة أيضا فى الجرائد السيارة بأروبا ، ولكنني سمعت القصة على وجه آخر . فقد روى لي أستاذي يوسف خوجة ، عندما تناول كأسا من عرق (جمايكا) ، فلعب برأسه وأطلق لسانه ، أن القبائل لم يقتلوا الفرنسيين من تلقاء أنفسهم ، وانما قتلوهم بناء على أخبار سرية وصلت اليهم من الجزائر ، تقول لهم بأن الاسرى فرنسيون وليسوا انجليزيين ، وتأمرهم بقتلهم والتضحية بنصفهم على الاقل فى سبيل الاسلام . ولـم يعرف يوسف خوجة نفسه أكانت تلك الاوامر صادرة عن الداي أم عن الوزير أم عن أحد المرابطين ، الذين كان لهم أيضا تأثير كبير على الشعب الجزائري ، فتعود على احترامهم وتقديسهم . والارجح أنها صدرت عن واحد من هذين الاخيرين ، فقد كان الوزراء دائما من ألد أعداء المسيحيين، حتى أنهم كثيرا ما كانوا يسيئون معاملة بعض منهم دون علم الداي ، كما أنهم كثيرا ما حملوهم على اهاتنهم، وذلك عن طريق الاشارات والتلميحات الشريرة المغرضة . أما المرابطون وهم جمع من الكسالـى والدجالـين المخادعين ، فكانوا يرون فى الكفار أشد الأعداء خبثا وفسادا .

الفصـــل الخامـــس عشر

أوضاع الجزائر قبل نشوب الحـــرب

ان ما حدث للفرنسيين كان مبعث فرح وغبطة وبهجة كبيرة بالنسبـــة لأهالي الجزائر ، خاصة الطبقات الدنيا الجاهلة ، التي لم يكن لها ما تفقده ولا ترتدي السراويل على الاغلب وتعيش مما تحمله لها الصدف . أمـــا الاغنياء أتراكا وعربا ، فكان أمرهم مغايرا لذلك تماما ، حيث التزموا الصمت ، وكانت تجارتهم قد كسدت ، ولاح أمام أعينهم مستقبل مفزع مخيف ، وشعر بعضهم بالدمار الذي هو مقبل عليه ، وكانوا ينتظرون فى حزن وكآبة نزول الفرنسيين الى البر ، الا أن وضع الاتراك بصورة خاصة كان أصعب وأكثر تأزما . فقد كان عددهم فى الازمنـــة الماضيـــة يتراوح بين الاثنى عشر والاربعة عشر ألفا ، وهو عدد لم يكن يكفي لحماية دولة الجزائر ، اذ أن أغلب الجزائريين لم يكونوا مسلحين كما أنهم كانوا متأخرين نوعا ما ، الامر الذي جعل اخضاعهم مسألة عويصة مثلما هو الحال الآن . كان لهم ذلك العدد حين كان الداي يعيش فى وئام تام مع السلطان ، ولم تكن هناك حرب قائمة بينه وبين الدول الاروبية ، فكيف تستطيع الآن هذه الحفنة من الاتراك ، الذين لم تصلهم منذ أربع سنوات امدادات من الشرق ، وذلك بسبب الحصار الفرنسي من جهـــة وقطـــع العلاقات مع السلطان من جهة أخرى ، هذا بالاضافة الى مـــوت بعـــض الانكشارية وفرار عدة فرق ، يتراوح عدد الفرقة الواحدة بين الخمسين والستين شخصا ، الى تونس والمغرب ومصر ، فنزل عددهم الى أقل من

ستة آلاف ـ فكيف يستطيع هذا العدد حماية الجزائر ، لا سيما اذا علمنا أن الاتراك لم يكونوا يخافون نزول الفرنسيين فحسب ، بل كانوا يخشون أيضا ثورة الجزائريين ضدهم ؟

لقد اثار الاتراك الشعب الجزائري ضدهم بسبب ما ألحقوه به في عصور مضت من اذى واهانة واضطهاد . ومن ثم بدا الجزائريون يشعرون على مهل بقواهم الكامنة في أعماقهم ويطالبون بحقوقهم كاملة ، فأجبروا الداي على أن يعترف لهم كل يوم بنصيب أكثر من هذه الحقوق ، حتى أنه لم يكن من النادر أن ينتقموا من الاتراك ويلحقوا بهم الهوان والمذلة (32) . وكثيرا ما سمعت الاتراك يقولون فيما بينهم . « لقد تغير الموقف الآن . هذا ما يريده القدر في هذه اللحظة ، ولكن أمهلونا قليلا أيها العرب الملاعين ... فعندما تنتهي الحرب مع فرنسا ، ويرضى عنا السلطان ثانية ، ونصبح في غير حاجة الى مساعدتكم ، ينبغي لكم أن تضطهدوا من جديد ، وتشعروا مرة أخرى ، بثأرنا منكم ! » هكذا كانوا يتحدثون فيما بينهم ، ولكنهم في الظاهر كانوا يعاملون الجزائريين برفق ولطف ومرؤة . أما حسين باشا ، الذي لم يكن يخفى عليه ما يدور في خلد رعاياه ، فقد وجد نفسه في موقف حرج ، وفي وضع يدعو الى أعمال الفكر والروية . وقد فقد الهدوء الذي كان له وارتسم الغم على جبينه ، واستبدت به الكآبة . فكان يعيش تحت ضغط هذه الاوضاع ، والهموم تثقل كاهلة ، وغالبا ما كان يترك حريمه في الليل ، وقد أفزعته الاحلام الرهيبة . وما أكثر ما كنت أراه في الليالي القمراء يذرع سطح قصره جائيا ذاهبا ، وهو ملتف في برنوسه ، راميا ببصره بين الفنية والفنية عبر المنظار المكبر الى البحر .

وكان قد لمح للانكشارية سرا بأن تصرفهم مع الجزائريين في هذه المرحلة الدقيقة يجب أن يتسم بالذكاء والحكمة والاتزان ، وألا يلحقوا بهم أية اهانة

من شأنها أن تثيرهم ، وأفهمهم أن غض الطرف عنهم والتسامح معهم أفضل من محاولة اذلالهم ، كما أمرهم أن يتذكروا كم هم فى حاجة اليهم فى الوقت الحاضر . وأصدر كذلك بيانات للشعب الجزائري ، تملقه فيها ما وسعه التملق ، وأعطاه وعودا سيفي له بها فى وقت متأخر ، وقال انه لم يدفعه الى هذه الحرب مع فرنسا الا حبه للشعب وحرصه على رفاهيته ، وحتى لا يستعبد الفرنسيون الجزائر ولا يتاح لهم أن يعلقوا صليبهم الكريه فوق بقاع المسلمين المقدسة .

ودعا كبار المشائخ الى قصره بالقصبة عدة مرات ، وخلع عليهم برانس حمراء وسيوفا بأغماد مذهبة وساعات صدرية ، وأمر وزراءه أكثر من مرة بزيارة قبور الاولياء على اختلافها ، فزاروها وذبحوا الاغنام والابقار ، وفرقوا الاموال على الفقراء الذين اجتمعوا هناك . وعزل الداي كذلك المفتي التركي ، زيادة فى تملقه للعرب ، وولى مكانه عربيا ، وذلك ما لم يحدث فى الجزائر فى السابق أبدا ، وبعث الى جميع الائمة بهدايا صغيرة ، وطلب منهم أن يتوجهوا بالدعاء الى النبي والى الاولياء ليشدوا من أزره ، فيكون له النصر والغلبة . وتبعا لذلك راح الائمة يتحدثون فى المساجد والازقة عما لأوليائهم من قدرة وقوة ، ويشيدون بالمعجزات التي حدثت على يد المرابطين الثلاثة سيدي عبد القادر ، وسيدي عبد الرحمن، وسيدي ولد دادة ، وأنقذت المدينة من الخراب والدمار أكثر من مرة . فأخذ الشعب يدعو هؤلاء الاولياء بدون انقطاع ، وكان على يقين من أن ولـد دادة سوف ينقذ المدينة من الاعداء مرات عديدة .

كانت هذه هي الاوضاع فى الجزائر ابان الاحتفال بقربان بيرام (عيد الاضحى) ، ولكن هذا الاحتفال توقف بسبب حادثة غريبة ، فقد كشف النقاب عن مؤامرة كانت تستهدف قتل الداي ووزرائه وقلب نظام الحكم فى الجزائر . ذلك أن ستة وأربعين انكشاريا ، كانوا من أصدقـاء وزيـر

الشؤون البحرية القتيل يحي آغا . قرروا الانتقام لموت صديقهم وولي أنفسهم ووضع حد للازمة التي تعيشها البلاد . والحق أنهم كانوا قد وضعوا مصلحة الحكومة نصب اعينهم ، واتفقوا على التفاوض مع فرنسا ان نجح مساعيهم وتم تاليف حكومتهم الجديدة ، وعلى تقديم تضحيات هامة فى سبيل ذلك . أما اذا لم ترض حكومة فرنسا بمفاوضتهم ، فانهم سيفضلون حينئذ الوقوع فى أيدي الانجليز على الاستسلام للفرنسيين .

وكانت خطتهم كما يلي : كان على كل فرد منهم أن يتوجه فى اليـوم الاول من العيد ، مسلحا بخنجر ومسدس صغير ، الى القصبة ، وكان من السهل عليهم الوصول اليها ، لأن الداي تعود أن يستقبل كل واحد من رعاياه صبيحة هذا اليوم لتهنئته بالعيد وتقبيل يده . فقرر المتآمرون أن يثبوا عليه وعلى وزرائه أثناء تقبيل يده ، ويقتلوهم ليجلسوا قائدهـم مصطفى خوجة (33) على العرش . غير أن واحدا منهم خانهم فى مؤامرتهم هذه . فقد ذهب قبل العيد بيوم واحد الى القصبة وكشف النقاب عن الخطة التي دبروها فى الخفاء للقضاء على الداي . وعندما سمع حسين باشا بهذا غضب غضبا شديدا وحنق على المتآمرين ، لأنه كان على يقين من أنه لا يستحق أن تقوم ضده مآمرة كهذه ، فمنذ أن تولى الحكم وهو يعمل لمصلحة حكومته والنهوض ببلاده . وأمر بالقاء القبض على رؤساء المؤامرة السبعة وخنقهم فى الحال (34) . أما بقيتهم من المأجورين الادنياء فقـد طردوا من المدينة ، وكان بين الانكشارية المأجورين عجوز أعمى ، اعترف عندما أحضر أمام الداي بأن الفقر هو الذي دفعه الى مشاركتهم والقيام بأعمال الجوسسة نظير مبلغ من المال ، فأعطاه الداي برنوسا أحمر ونفاه الى وهران .

وهكذا امتلات نفس الداي بالكره للانكشاريين والسخط عليهم ، وكان وكان قبل ذلك متأكدا من اخلاصهم له ، وحرصهم على مصلحته والوقوف

الى جانبه فى جميع الظروف والاحوال . وقد ساءه جدا أن يصبح أولئك الذين أغدق عليهم نعمه وعطاياه من بين الخونة الطامعـين فى حياتـه ، والمتطلعين الى حتفه . وأصبح منذ تلك اللحظة سيء الظن بكل ما حوله ، وكان لا يكف عن تقريع الاتراك على تنكرهم له وغدرهم به ، وأمسى أكثر ميلا الى حاشيته من العبيد والجزائريين الاحرار .

الفصل السادس عشر

نزول الفرنسيين الى البر وانتصارهم

ما أن نادى مناد أن الاسطول الفرنسي يقترب من الجزائر ، حتى استبد الذعر والفزع بالمدينة كلها ، وخرج جميع السكان الى السطوح ليتأكدوا من ذلك بأنفسهم ، وأرسلت المدافع طلقتين من عيار الستين رطلا ، اشارة للجزائريين المقيمين حول المدينة ، ليصلوا اليها بأقصى سرعة ، وركبت الرسل الى جميع بايات الدولة وشيوخها بقصد اعلامهم بالخطر المحدق بالدولة . وكنت قد نسيت التاريخ الميلادي ، فلم أعرف فى ذلك الحين لا اليوم ولا الشهر الذي ظهر فيه الاسطول الفرنسي أمام الجزائر (35) ، كنت أعرف فقط أن ذلك كان فى صيف سنة 1830 أو فى يزن (صيف) سنة 1245 حسب التاريخ التركي .

كان ذلك فى الصباح الباكر عند شروق الشمس ، فحين بددت أشعتها ضباب البحر ، بدا الاسطول الفرنسي أمام أعيننا ، وكان يمتد على مسافة كبيرة ، وقد ساعدته رياح الصباح الباردة على السير ، فتقدم من المدينة بسرعة بالغة . وعلى بعد أميال منها نشرت السفن قلوعها ، وسارت والريح تدفعها من الشرق الى الغرب ، مارة بالمدينة . ان عظمة الاسطول وقوته قد زرعتا الخوف فى قلوب الجزائريين . وكانت شبه جزيرة سيدي فرج قد اختيرت للنزول الى البر ، وتقع غرب مدينة الجزائر على بعد خمس ساعات ، وقد استمدت اسمها من مرابط مدفون فيها داخل حصن صغير .

وعصر ذلك اليوم وصل رسول على ظهر جواد من الآغا أفندي ، الذي كان قد توجه مع بضعة آلاف من الجنود الى سيدي فرج ، الى الداي وأخبره « أن الفرنسيين قد حطموا حامية سيدي فرج تماما ، وأنهم نزلوا الى البر على الرغم من مقاومته الشديدة ، وأن عدد من نزل منهم الى البر ، حتى اللحظة التي وجه اليه فيها الرسول ، يناهز العشرين ألفا (36) » فسير الداي رسولا يأمره بالانسحاب الى هضبة أسطى والي ، التي تحد سيدي فرج ، واحتلالها والوقوف بها موقع المدافع الى أن تصله القوات المحاربة من البايات والشيوخ . فامتثل الوزير لأوامر الداي ، وضرب الخيم فوق الهضبة ، ونصب المدفعية الثقيلة ، وحافظ على الهدوء كما فعل الفرنسيون أيضا. ولذلك لم يقع شيء باستثناء المناوشات والاشتباكات الصغيرة التي كانت تحدث يوميا ويتسبب فيها الجزائريون . (37)

وقد تولى الآغا آفندي ابراهيم قيادة الجيش الجزائري ، الذي كان ينضم اليه فى كل يوم بضعة آلاف من العرب والقبائل بقيادة باياتهم وشيوخهم أو خلفائهم (38) ، فوصل باي قسنطينة الى أسطى والي مع حوالي اثنى عشر ألفا ، وباي تيطري مع ثمانية آلاف ، وخليفته ثلاثة آلاف ، وخليفة باي وهران ستة آلاف ، وشيوخ القبائل ما بين الستة عشر والثمانية عشر ألفا ، وأمين الميزابيين (39) مع حوالي أربعة آلاف ، وبذلك أصبح الجيش الجزائري ، باضافة حرس الآغا أفندي وسكان الجزائر الذين تواصلوا الى المعسكر دفعات كبيرة ، يضم خمسين ألف رجل على الاقل . والحقيقة أن كلا من الداي والآغا أفندي كان يجهل مقدار القوات الجزائرية المحاربة .

وعندما تمركز هذا الجيش الجرار ، وأخذ مواقعه فوق هضبة أسطى والي ، أمر الداي بأن يتم الهجوم على الجيش الفرنسي وافنائه فى صبيحة اليوم التالي ، وقد أثار هذا الامر حماسا شديدا فى المعسكر ، ذلك أنه لم

يكن أحد من المسلمين يشك فى أن الجيش الفرنسي سيباد فى اليوم التالي . وفرح كثير من العرب والاتراك بالمعركة الشاملة التي كان موعدها صباح الغد ، بحيث انهم لم يحتملوا الانتظار والبقاء فى المعسكر ، فهاجموا الفرنسيين واشتبكوا معهم فى معارك ، استعملت فيها البنادق الصغيرة من الجهتين . وفى أثناء هذه المعارك حدث حادث فى صفوف الجزائريين كانت عواقبه وخيمة عليهم فى اليوم التالي ، وساعدت على انتصار الفرنسيين .

كان حسين باشا قد قرر عند نزول الفرنسيين الى البر جوائز يمنحها على الرؤوس التي تحمل اليه ، وبما أنها كانت فى بداية الامر نادرة ، فقد جعل لكل رأس ، تشجيعا منه للجنود ، ما بين أربعين وخمسين دولارا أسبانيا ، وكلما كثرت الرؤوس قل ما يدفعه ثمنا لها ، بحيث نزل السعر شيئا فشيئا الى أن وصل أخيرا الى خمسة دولارات ، وفى النهاية لم يعد يدفع شيئا ، بل كان يكتفي بتسجيل أسماء الجنود فى سجلات خاصة ، ليستطيع مكافأتهم بعد انتهاء الحرب . وذات يوم ، حين كان سعر الرؤوس لا يزال مرتفعا ، قتل انكشاري قبائليا من الجند ، كان معه فى دغل ، وقطع رأسه ليأخذ عليه جائزة من الداي ، ظانا أنه لم يره أحد ، الا أن صديقا للقتيل ، كان مختفيا خلف صخرة ، رأى ما فعل الانكشاري بصديقه . وعندئذ أقبل القبائل على الانكشاري يريدون قتله ، ولكن جمعا من الانكشارية حالوا بينهم وبينه .

ولما صمم القبائل على الاخذ بالثأر وقتل صديقهم فى الحال ، حاول الاتراك جهدهم تهدئتهم ، وحين رأوا عناد القبائل واصرارهم على الانتقام ، اقترحوا عليهم حمل القاتل الى الآغا أفندي ، ليعدم على الاقل كما جرت العادة التركية فى ذلك . فارتضى القبائل هذا الحل على أن يحملوه بأنفسهم الى الوزير . وعندما مثل الانكشاري بين يدي الوزير ، قال له انه لم يقتل القبائلي عمدا ، بل سهوا ، اذ ظنه فرنسيا لدى رؤية رأسه العارية وشعره

الطويل ، فقبل الوزير عذره ، وسيره الى الجزائر حماية له من انتقام القبائل منه وأخذهم بثأر القتيل . ولم يكتف الآغا بهذا ، بل وقع فى خطأ آخر . فقد أخذ يؤنب القبائل ويعاتبهم عتابا مرا ، ويقول : « انهم يستحقون أن يقتلوا سهوا ، ما داموا لا يرتدون العمامة مثل بقية المسلمين . » فاشتدت ثورة القبائل بسبب هذا الظلم ، ولهذه الاهانة التي لحقتهم من الوزير ، فقرروا الانتقام من الاتراك فى أقرب وقت ممكن ، وسرعان ما سنحت لهم الفرصة بذلك .

وفى صبيحة اليوم التالي سمعت فى الجزائر طلقات المدفعية . آتية من جهة الغرب التي تهب منها الرياح ، كانت ايذانا ببدء المعركة . وان هي الا لحظة حتى تردد صدى مرعب فوق الجبال ، وبين الحين والآخر كانت تسمع زمجرات المدفعية الثقيلة ممتزجة بدوي أكثر من سبعين ألف بندقية تطلق بالفتيلة الملتهبة . وفى العاشرة صباحا وصل رسول على جناح السرعة من أرض المعركة ليخبر الداي ، الذي كان مهموما جدا ، بأن القوات الجزائرية كلها قد هاجمت مواقع الجيش الفرنسي ، وأن المعركة متلاحمة بين الجيشين منذ ساعات بدون انقطاع ، وأضاف الى ذلك أيضا أن الجيش الفرنسي لن يباد نهائيا قبل حلول المساء فحسب ، بل انه لن يبقى فرنسي واحد بالبر الجزائري اطلاقا .

وقد سر الداي بذلك سرورا عظيما . وخلع على ذلك المحظوظ الذي أرسل اليه ليبلغه هذا الخبر ، وعلم الاهالي خبر هذا النصر العظيم الذي سيكون من نصيبهم ، واستبد بهم السرور والبهجة سلفا . ولعلي كنت فى المدينة كلها الوحيد الذي لم يصدق هذا الخبر . ومع أني كنت خائفا من نتيجة المعركة ، فقد كنت أعلل نفسي بأن الجيش الفرنسي ، ان كان لا يفوق الجيش التركي شجاعة وقوة ، فهو يفوقه ذكاء ودهاء . وكنا فى المدينة نسمع هدير المدافع حتى الحادية عشرة ، ثم تبع ذلك هدوء تام ، وقد

وقع فى ظن الناس على العموم أن الجيش الفرنسي قد اندحر ، بحيث اني سمعت بعض الجزائريين يقولون بأن المحاربين لم يقضوا على الفرنسيين كلهم ، بل ان بعضهم سيحملون أحياء الى الجزائر لتقطع آذانهم وتسير الى ملك فرنسا .

ولذلك عم الذعر والاضطراب المدينة عندما حمل الفرسان الهاربون حوالي الثانية بعد الظهر أخبار تقول ان بعضا من المقاتلين قد تركوا حوالي الحادية عشرة ميدان المعركة ، وذلك فى الوقت الذي تلاحم فيه الفريقان تلاحما شديدا وبدت علائم النصر بجانب جيش المسلمين . ولم يكن أولئك المقاتلون سوى القبائل ، فقد انسحبوا دفعة واحدة على حين غرة ، وكأنما حدث ذلك استجابة لاشارة ما ، وهربوا الى الجبال وهم يهتفون : « لقد غلبنا ، فلنهرب ، ولينج بنفسه من قدر على النجاة . » وقد نتج عن انسحاب القبائل أن شمل الاضطراب صفوف جيش المسلمين ، فانتهز الفرنسيون هذه الفرصة ، وصدوا هجوم المسلمين عنهم ، ثم هجم الجيش الفرنسي كله ، والجنود يهتفون « هيا » و « يحيا الملك ! » ، على هضبة أسطى والي (40) .

وفى ذلك الحين اختلط الامر على الجيش الجزائري كله ، وعمت الفوضى بين صفوفه ، وعجز عن الوقوف فى وجه السلاح الابيض الفرنسي، فتفرقت جموعه ، وهي تهتف « خير الله » أو « ستر ربي » ، واذا بالفرنسيين يستولون على المدفعية الجزائرية ويصوبونها نحو الهاربين ، مما زاد فى خوف الجيش المندحر وسرعة انهزامه وهروبه (41) . فوقع فى أيدي الفرنسيين مدافع عظيمة ، وعدد من خيام المعسكر التركي ، يتراوح بين الستمائة والثمانمائة ، وجدوا فيها كثيرا من الاسلحة والزرابي الرائعة، وكذلك كمية من التبغ والبن وغيرها من المواد الغذائية . هذا بالاضافة الى بضعة آلاف من الدواب ، التي حمل عليها الاتراك الميالين للراحة

منعتهم (42) ، وآلاف أخرى من الاغنام . وهكذا تحول جيش المسلمين، الذي كان قبل ساعات رهيبا مرعبا ، الى كتل هاربة .

فبينما فرت جموع العرب والقبائل الى الجبال بأقصى سرعتها ، عاد سكان المدينة والانكشاريون الى الجزائر ، وقد استولى عليهم الذهول والانكسار ، حاملين معهم عددا كبيرا من الجرحى ، وقد بقي مع ذلك آلاف من القتلى والجرحى جرحا خطيرا فى أرض المعركة ، وكان الطريق كله من أسطى والي الى الجزائر مغطى بالجرحى ، وتسلل الكثير منهم الى الادغال ، حيث عثر المسلمون على بعضهم فيما بعد ، والفرنسيون على بعضهم الآخر ، من بينهم عدد من الموتى ، الذين نهشت لحومهم الحيوانات المفترسة .

الفصـــل السابــع عشر

ظروفي بعـــد هـــذا النصر

كانت دهشة الداي تفوق الوصف ، وكان ذعر السكان قد وصل الى حد ، جعل الكثير منهم يتسكعون فى الشوارع فى ذهول تام ، وأخـــذ بعضهم يتساءل عن مكان وجود الكفار وهل سيقتلون جميع المسلمين . وكان بالقرب مني انكشاري ، عرفته مغرورا متكبرا شريرا ، اشتد بـــه الخوف من الفرنسيين ، الى درجة أنه سألني :

ــ هل يمكنني أن أنجو من الفرنسيين ، اذا أنا اتخذت دينهم دينا لي ؟ فقلت لـــه :

ــ يا لك من ثعلب مكار نذل ! هل أصبح دينك ، الذي كثيرا ما حاولت أن تقنعني باعتناقه ، قابلا الآن للبيع ؟

وعندئذ انصرف عني خجلا. وكما توقعت أنا كذلك توقع جميع السكان دخول الفرنسيين الى الجزائر فى نفس اليوم ، وقد حملني على ذلك أكثر من سبب ، فما كان أحد ليقاومهم ظهر ذلك اليوم ، اذ كان الجميع يقولون « الله دان ــ هذا من الله » ، ثم ان التركي اذا آمن بأن شيئا قد قدر له ، فانه يفضل الموت لتوه على أن يبذل كل ما فى وسعه مرة أخرى لبلوغ غايته . وظللت أنتظر ساعات عديدة ، وكلما سمعت حركة خيل الي أني أسمع أبواق الفرنسيين ودقات طبولهم . وقد صعدت مائة مرة الى سطح قصرنا ، وبيدي المنظار المكبر ، لأرى أولئك الذين سيمنحونني حريتي ،

ولكني كنت أنزل فى كل مرة خائبا مضطربا حزينا ، الا أن القدر أراد أن أنال حريتي قبل وصول المحررين .

كان الخزناجي أفندي قد أرسل فى طلبي فى الساعة الرابعة ، ولما ذهبت اليه وجدته كئيبا مطرقا ، وهو جالس على المخدة . وحين لمحني سألني بصوت حزين عما اذا كنت قد سمعت بالمعركة الخاسرة ، فأومأت بالايجاب، واذا به يستمر فى حديثه قائلا :

ــ نعم يا بني ! لقد أراد الله أن يندحر جيش المسلمين ، ولكن الهلال لم يغلب بعد ، فالله لن يسكن الفرنسيين من هذه المدينة أبدا .
ثم حدق فى وجهي فى جمود ، ولكني لم انبس ، فعاد يقول :

ــ لقد حمل من أرض المعركة عدد كبير من الجرحى الى الجزائر ، ونظرا لأننا ليس لدينا أطباء فقد طلب مني الباشا أن أرسلك الى الثكنات ، التي حمل الجرحى اليها ، لتضمد جراحهم . واني لعلى يقين من أنك لن تبخل على أولئك المساكين بمساعدتك ، خاصة وأنا أعلم أن قلبك الشاكر للجميل لن يدعك تنسى أنك لم تجد من المسلمين خلال عدة سنوات ، حين كان لهم عزهم وهناؤهم وكنت أنت عبدا لهم ، غير العطف والمودة وحسن المعاملة ، كما أنك أكلت خبزهم . انك بمعالجتك للمرضى من المسلمين معالجة ناجعة مفيدة لن تضمن لنفسك ولوالديك الجنة فحسب ، بل اننا أنا والداي سنكافئك بعد انتهاء هذه الحرب مكافأة حسنة .

قبلت يده مرة أخرى ، كما جرت العادة ، ثم هتفت بفرحة طاغية :

ــ أعدك بكل شيء ، يا مولاي ، ولن أخلف وعدي ، اذا ضمنت لي حريتي ، التي أتطلع اليها منذ زمن طويل .

معـ ي .

ـ أنت حر ! وسوف أكافئك مكافأة السلطان . ان انت اعتنيت بالجرحى عناية كاملـة .

مركت مولاي السابق . وانا سعيد كل السعادة باستعادتي لحريتي ، ومضيت الى غرفتي لأقدم اخلص مشاعري للمنقذ الاكبر الاكثر فضلا ونعمة وعطاء . ثم طلبت من خادمي آن يحمل عددا من الاضمدة واللصاقات وغيرها من الاشياء اللازمة لذلك . ومضيت برفقته الى الثكنات . وفى طريقي اليها اشتدت بي الفرحة والبهجة . فأصبحت فى حالة غير طبيعية ، بحيث اني ضحكت من نفسي فيما بعد . ولا أزال آذكر أن الاتراك قد تلقوني بأشد الاشارات حزنا . وكان خادمي يصيح بهم « بالك ! بالك ! » وحين شاهدوا ثيابي الراقية الفخمة ابتعدوا عن طريقي فى احترام بالغ ، فتأثر قلبي لمرآهم وامتلأ بمختلف الانفعالات ، فقد شعرت شعورا متزايدا بسعادتي وبشقائهم فى الوقت نفسه . ورحت أصافحهم وأروي لهم كيف أصبحت حرا ، وآطلب منهم أن يشاركوني فى فرحتي .

وأمرت بجمع الجرحى فى أكبر ثكنة من ثكنات الانكشاريين ، لأن ذلك أروح لي ولهم ، وكان عددهم حوالي ثمانمائة وستين ، أما بقية الجرحى وأغلبهم من الجزائريين والاتراك المتزوجين ، فقد وضعوا فى البنايـات العامة الاخرى أو فى منازلهم الخاصة ، وكان عددهم يناهز السبعمائة ، وقد أصيبوا على العموم برصاص البنادق ، باستثناء عدد قليل منهم أصيب بقنابل المدافع ، واثنين برؤوس الحراب . وقد أرسل لي الخزناجي أفندي بناء على طلبي كتان الخيم العتيقة ، استعملته فى الضماد لعدم وجـود وسائل أحسن منه . ولم تكن هناك نسالات أيضا ، فكان لابد من تنفها أولا ، ولذلك أمر الوزير بأن يساعدني فى ذلك جميع الحلاقين من العرب

واليهود ، الا أن هؤلاء كانت تنقصهم الخبرة والآلات اللازمة للضمادة . ومع أنه كان هناك واحد وعشرون من هؤلاء الممارسين لهذا النوع من العمل ، فاني لم أستطع سوى تعليم خمسة منهم كيفية استعمال الضماد المناسب ، وأمرت البقية بقطع العصابات من الخيم القديمة ونسل النسالات .

ولكي أتيح للقاريء آن يتصور ما كان حولي من تعاسة وعويل ونحيب ، ومبلغ ذلك كله فلابد لي أن ألاحظ أني ضمدت خلال أربع ساعات جراح مائتين وأربعين انكشاريا ، وأخرجت من أجسامهم فى هذه المدة المحددة خمسا وتسعين رصاصة ورصاصتين محشوتين بقطع الحديد . وفى خلال هذه الساعات الاربع حرر الموت سبعة وعشرين جريحا من آلامهم ، مات البعض منهم تحت يدي . وقد وصلت التعاسة فى هذا المكان حدا ، أعجز عن اعطاء صورة حقيقية عنه .

كانت القاعة الواحدة تضم بين جدرانها بين الثلاثين والخمسين جريحا ، كانوا فى حالة خطيرة ، وقد اصطف بعضهم بجانب بعضهم الآخر . وكنت أحيانا انتصب واعتدل فى وقفتي ، والعرق يتصبب من جبيني وأنا أكاد أسقط من جراء آلام الظهر والاعياء ، لأستريح قليلا ، الا أن الاصوات سرعان ما كانت ترتفع منادية اياي ، فهنا تعس يتوسل الي أن أسرع اليه لوجه الله وأحاول تهدئة آلامه المبرحة ، وهنا آخرون ، كنت قد أخرجت الرصاص من أجسامهم ، وضمدت جراحهم فهدأت آلامهم ، يريدون تقبيل يدي ويدعون بصوت عال للأم التي ولدتني وللمعلمين الذين أخذت عنهم فني ، وهناك آخرون يعانون سكرات الموت ، وقد أصبحت انتفاضاتهم وأناتهم العميقة وحشرجاتهم الاخيرة لا تطاق بالنسبة لي . ثم انه كان علي من جهة أخرى أن أبدى اشمئزازي من جمود المرضين الذين أرغموا على مساعدتي ، وأن أتقزز من قلة احساسهم بمسؤوليتهم ، فقد ماتت فى نفوسهم مشاعر الشفقة والرحمة تماما ، مما اضطرني أحيانا الى ضربهم

وحملهم بالقوة على العناية بالمرضى ، كما أغلق عليهم الانكشاريون المسلحون الابواب ومنعوهم من الخروج .

وفى ساعة متأخرة من الليل نال مني الارهاق والاجهاد كثيرا ، فوجب علي أن أستريح بضع ساعات ، على الرغم من وجود عدد كبير من الجرحى ، كان لابد من تضميد جراحهم للمرة الاولى . وكان بعض مساعدي قد وقعوا فى اعياء بين المرضى وتمددوا فوق الارض ، ولم يعد بعد ممكنا حملهم على النهوض مع شدة حاجتي اليهم والحاح الجرحى فى طلبهم . وبينما طلب مني الانكشاريون ، الذين خفف الضماد الاول من حدة آلامهم ، أن أستريح قليلا ، كان الآخرون الذين لم يعتن بهم بعد ، يتوسلون الي بأصوات باكية ناحبة أن أضمد جراحهم فى هذه الليلة والا فان الآلام سوف تقضي عليهم قبل طلوع الفجر . وهكذا حاولت مرة أخرى ممارسة هذا العمل المؤلم ، غير أني كنت عاجزا عن الوقوف على قدمي ، فتركت غرفة العويل مخدرا تماما .

حين غادرت قاعة المرضى كانت الساعة تشير الى العاشرة ليلا ، ولم أكن قد سمعت شيئا ، خلال هذا الوقت الذي قضيته فى الثكنة ، عما حدث خارجها . فقيل لي حينئذ ان الداي قد دعا فى المساء الى عقد جلسة حربية ، حضرها جميع الوزراء والموظفين وكبار الضباط ، كما دعا العلماء عربا وأتراكا للتشاور معهم . وكانت نتيجة هذه الجلسة أن وجه الداي وكبار رجال الدولة أكثر من ثلاثين رسالة الى مختلف المناطق الجزائرية لاعادة تنظيم القوات المشتتة (43) ، كما أصدر الداي قرارا بأن يحمل ما يكفي من المؤنة والذخيرة الى القلعة حسبما تتطلبه ظروف الحرب .

وهذه القلعة ، ويطلق عليها الجزائريون عادة اسم قلعة السلطان أو برج الاسبانيول ، وتقع على الجانب البري من الجزائر ، هي الحصن الوحيد ،

الذي كان لابد للفرنسيين ، ان آرادوا احتلال الجزائر ، أن يمروا به .
وبرج الاسبانيون (وقد سمي بهذا الاسم لان قسما منه بناه الاسبانيون أيام شارل الخامس) واقع فى جنوب الجزائر على بعد طلقة مدفع تقريبا ، وله ثلاث حاميات ، يتلو بعضها بعضا ، ويتراوح عدد مدافعها بين الثمانين والمائة . أما فى اليوم الذي خسر فيه الجزائريون معركتهم مع الفرنسيين ، فلم يكن به سوى أربعة مدافع وحوالي خمسين قذيفة وأقل من قنطار من البارود ، ان لم أخطيء فى هذا ، وما يقرب من أربعين رجلا من كبار السن ، ولم تكن به مؤونة . وفى الليل حمل اليه بناء على أوامر الداي عدد كبير من القنابل والقذائف والرصاص وكمية كبيرة من البارود والذخيرة ، ويقوم على حمايته ألف رجل بقيادة الخزناجي أفندي (44) .

وقد عم المدينة فى تلك الليلة نشاط كبير ، اذ زايل الروع الجزائريين وتسلحوا من جديد . وعند طلوع الفجر خرج عدة آلاف الى ظهر المدينة ، يتقدمهم العلماء وكانوا يهتفون « مجاهدين فى سبيل الله ! » وفى الصباح نفسه انضم اليهم عدد من العرب والقبائل ، فتكون جيش يتراوح عدده بين الثمانية عشر والعشرين ألفا ، وساروا لملاقاة الفرنسيين ، والتقوا بهم فى أسطى والي ، حيث تحصن الفرنسيون . غير أن الجزائريين تجنبوا الالتحام معهم فى معركة شاملة ، بل اقتصروا على الحاق الضرر بهم عن طريق المناوشات الصغيرة .

وعدت فى الصباح الى مكان عملي لمساعدة المعذبين ، قدر ما تسمح به طاقتي على الاقل ونيتي الحسنة وارادتي الصادقة . وعندما وصلت الى غرف المرضى ، علمت أن عددا من الجرحى قد انتقل الى رحمة ربه فى تلك الليلة ، وبدأت العمل فى الحين ، فضمدت فى ذلك الصباح مائة جريح . ولا أزال الى اليوم أتعجب من الذكاء والصبر اللذين اتسم بهما عملي آنئذ ، على الرغم من قلة تجاربي . لقد جابهت كل أنواع العمليات

الجراحية فى مختلف أجزاء الجسم الانساني ، وكان بعضها جديدا أو نادرا بالنسبة لي ، من جملتها أني قمت فى ذلك اليوم ببتر يد انكشاري ، حطمت يده طلقة مدفع فرنسي ، الامر الذي زاد من ثقتي بفني .

وبينما كنت مشغولا على هذه الصورة ، ارسل فى طلبي من جميع أنحاء المدينة ، فقد كان هناك ، كما أشرت سابقا ، عدد كبير من الجرحى فى البنايات العامة أو بيوت حريمهم . حتى النساء ، اللواتي رافقن الرجال الى أرض المعركة ، أصبحن الآن فى حاجة الى مساعدتي الطبية (45) ، وكنت أشعر أحيانا بالغم ، وأنا أتأمل الجروح التي لا تحصى ، وكم كان يرهقني التفكير فى معالجتها وشفائها بمفردي . ذلك أني لم أكن أشعر بقلة الادوية وقطع الضماد فحسب ، بل كان يعذبني أيضا السؤال عما اذا كنت أعالج المرضى المساكين بصورة سليمة وعما اذا كان فى استطاعتي أن أتحمل مسئولية سلوكي أمام ضميري .

كنت أعرف أن كثيرا من فروع الطب مجهولة لدي تماما ، وأن خبرتي القليلة لا تسمح لي بأن أحمل لقب طبيب ، الا أني كنت أعلل نفسي بأن لي ارادة صادقة وأن نيتي الطيبة فى مساعدة المساكين قد كوفئت بنجاح مرض . لقد حاولت جهدي ولم أذخر وسعا فى سبيل الوصول الى غاية ترضي ضميري ومرضاي . وكنت أعالج الجرحى بطريقة تحول دون حدوث أي التهاب فى أماكن الجرح ، اذ بدا لي أن ذلك أحسن وأنسب ، خاصة فى بلاد حارة كالجزائر . كما أني حرصت على أن يبقى الجرح طريا نظيفا ، واهتممت أيضا بنظافة الغرف والمطارح وبقية الافرشة ، ليتمكن المرضى من الاستراحة فوقها . وقد استجاب الداي لطلبي فوزعت الحكومة على المرضى المساكين ، الذين كانت تعوزهم الالبسة البيضاء ، عددا من القمصان . واعتنيت كذلك بالطعام المناسب للمريض ، وساعدني وزير المالية بدفع مرتب للممرضين ، قيمته ربيتان فى اليوم ، لأنهم كانوا قد

اشتكوا من شدة معاملتي لهم وارغامي أياهم على البقاء فى غرف المرضى ، وذلك نظير طعامهم وشرابهم فقط . الا أني أصبحت ، بعد حصولهم على هذا المرتب ، أطالبهم بعمل أكثر ، وأعاقب منهم أولئك الذين لا يقومون بواجبهم كما ينبغي ، وما كانت مثل هذه التنظيمات لتظهر الى الوجود دون عنايتي ، ذلك أن الثقافة فى الجزائر لم تكن قد وصلت بعد الى هذا الحد .

وكيفما كان الامر فقد تمكنت بهذه الطريقة وبهذا النوع من العناية من أن أرى وجوها ضاحكة مستبشرة عوض الملامح الحزينة ، والنظرات الكئيبة ، والشكاوي المؤلمة ، فكان المرضى يهتفون بي : « مرحبا بك ... أنت يا من يساعد عند الحاجة ! ان الله سيجازيك ببركة النبي محمد ، الذي تعالج أنت أتباعه . سيمد فى عمرك ويمنحك السعادة الابدية ! والله لم يسلط عليك العبودية الا لتكون منقذنا ، كما قدر لسيدنا يوسف أن يدخل مصر عبدا ، لينعم على الآلاف من الناس وينقذهم . » حقا ، كثيرا ما فكرت فى يوسف الصبي !

لقد ضمدت خلال خمسة عشر يوما ألفين من الجرحى فى الثكنات وفى الحريم ، وقد أطلعت فى هذا الاخير على مشاهد متنوعة ، أكتفي بذكر مشهدين منها لاختلافهما عن بقية المشاهد الاخرى . فبعد أن أرسل فى طلبي عدة مرات من قبل امرأة جريح ، مضيت أخيرا لمساعدة تلك الجميلة المسكينة ، فوجدتها جالسة فوق فراشها ، وقد اجتمعت حولها أربع فتيات سافرات ، بينما غطت هي وجهها وعنقها ، ولكن صدرها وذراعيها وفخذيها كانت عارية تماما ، بحيث ان منظرها قد جلب انتباهي بمجرد دخولي الى الغرفة . وعندما سألت عن سبب جرحها ، عرفت ممن حولها فى أثناء ذلك أنها كانت رئيسة مبغى عام (36) . وما أن شاهدتني حتى قالت بلهجة صارخة :

ـ ايه ... أنت الطبيب ! ان لك شاربا خفيفا ، الا أنك تنقصك اللحية ، التي هي زينة الرجال . أيوجد أيضا أطباء بدون لحية ؟

فقلت لها :

ـ أجل . كما توجد نسوان بلا حياء ! فلك أنت أيضا قناعك ، ولكنك تنقصك زينة المرأة الكبيرة : الحياء !

قالت :

ـ آه ! انه يتكلم كما لو أنه يريد رؤية وجهي !

ثم بدأت تنزع حجابها ، فتراجعت بحركة لا شعورية . أشهد أني لم أروجها قط بهذه الدرجة من القبح . كانت صفراء كالليمون ، وكانت عيناها غائمتين غائرتين ، وكان أنفها مدببا لامعا ، وشفتاها سمراوين فى زرقة ، وفمها صغيرا مائلا ، وكان يبدو كأن الآثام كلها قد اقتعدت هذا الوجه . يضاف الى ذلك أنها كانت قد صبغت ، على عادة نساء الجزائر ، حاجبيها وأهدابها بالاسود ، مما زاد من حدة ألوانها الجارحة للنظر . وقد عن لها أن تحدثني وتطيل الحديث فيما كان لها من جمال وحسن وملاحة وتعدد لي عشاقها القدامى ، ولكنني سألتها عن جرحها باختصار ، فعرفت أنها قد أصيبت فى سمانة ساقها اليسرى اصابة خارجية ، لم تكن خطيرة على الاطلاق ، فقلت لها معاتبا :

ـ ما كان ينبغي لك أن ترسلي فى طلبي بسبب جرح طفيف كهذا . ألا تعلمين أنك بدعوتك أياي قد حرمت غيرك من المجروحين جرحا خطيرا من مساعدتي ؟

وعندئذ راحت تبكي وتولول ، ثم قالت :

ـ اذا تركتني فاني سوف أموت متأثرة بجروحي !

ولكني أكدت لها عكس ذلك وانصرفت بسرعة . وكنت قد أرسل فى طلبي من حريم آخر خمس مرات . ولما وصلت هناك وجدت أن الوضع حقا أخطر مما كنت أتصور ، فقد كان صاحب البيت ، وهو شاب فى مقتبل العمر ، يعاني اللحظات الاخيرة ، ذلك أن رصاصة العدو أصابت حوضه الايسن وحطمته . وعندما أردت أن أفحصه بدقة ، قال لي :

ــ دعني أمت ، يا صديقي ! لا تضيع وقتك معي دون فائدة ، فاني أشعر باقتراب ملاك الموت مني . لكني أرجوك أن تسرع الى زوجتي لانقاذها اذا أمكنك ذلك .

وقادتني وصيفة الى الغرفة الاخرى ، حيث كانت الشابة ، ابنة الثامنة عشرة ، طريحة الفراش ، وقد أصيبت اصابة خطيرة . وكانت قد جلست قرب فراشها أم باكية ، حاولت أن تغطي وجه الفتاة المريضة بقناع عند دخولي ، الا أن المعذبة قالت لها بصوت ضعيف :

ــ ابعدي « العجار » عني الآن ! ان الطبيب لن ينظر الي ، أنا المرأة الميتة ، بنهم ولن يغضبه أن يراني بدون « عجار » !

فهدأت من روعها ، وفى أثناء ذلك وقع نظري على جمالها ، ذلك الجمال الذي هداني اليه صوتها الناعم المنغوم . لقد رأيت وجها ملائكيا ، زاد اقتراب الموت من نقاء ملامحها وغضارتها وألقها ، فزاد جمالها سموا ورفعة وسنى . فزاوج الجمال الشرقي العفة الالمانية !

وروت لي أمها باكية كيف حملت ابنتها الغالية القربة على ظهرهـا ، ولحقت بزوجها من حبها له الى أرض المعركة ، وكيف أصابت زوجهـا رصاصة العدو القاتلة ، فساعدته ، هي زوجه ، على الابتعاد عن ضجة المعركة ، فأصيبت هي نفسها برصاصة فى ظهرها . ان هذه القصة وشكاية

الام الباتسه ومناحتها قد نفذت الى أعماق قلبي ، فشاركت الام فى عواطفها.
واقتربت من الجريحة الجميلة ، فشكت لي بأنها تحس بضغط موجع تحت
ذراعها اليسرى . وحين فحصت الموضع لاحظت تحت ورم يشبه الاسفنج
أشياء كثيرة صلبة ، ففتحت الورم بسرعة ، واذا بي أجد بين ضلعين من
أضلاعها رصاصة بندقية وقطعتين من رصاصة مكسورة ، وخرقة مـن
الصوف ، كانت قد انفصلت عن ردائها ودخلت جسدها مع الرصاص .
وقد لصقت هذه الاشياء كلها بين ضلعين ، وسببت للمسكينة آلاما يقصر
الوصف عنها . وما أن أبعدت هذه الاشياء حتى انتهت تلك الآلام المبرحة ،
وتناولت المرأة الشابة يدي ، التي كانت لا تزال ملطخة بالدم ، وشكرتني
بحرارة على أني أتحت لها بضع ساعات لا تتألم خلالها .

آه ! كم كان بودي أن أنقذ حياتها، ولكن شفاءها أصبح بعد أن أصيبت
رئتها أمرا مستحيلا . وعندما غادرت الدار ، وكنت حزينا كئيبا ، لأني
تركت ملاكا من هذا النوع يموت ، ذهبت لأحضر لها من صيدليتي كل ما
تبقى من عصير التوت ، وذلك لتنتعش به فى ساعاته الاخيرة قبل أن تموت.
كان اسم تلك الزوجة الجريئة خيرة .

الفصـــل الثامـــن عشر

الاستيلاء على الجزائر

كان الفريقان أثناء انشغالي بمعالجة الجرحى يتقاتلان بضراوة ، وكان الجيش الفرنسي قد تحصن فى أسطى والي وسيدي خلف عـلى بعـد أربع ساعات من الجزائر ، ولم يستطع أحد من الجانب التركي أن يعرف لماذا لا يواصل الفرنسيون زحفهم نحو المدينة . كانت القوات الجزائرية المحاربة تزيد عن عشرين ألف رجل ، بقيادة رجال الدين ، الا أن القيادة العامة كانت بيد مصطفى (بومزراق) ، باي تيطري ، وهو أشجع قواد الداي . وقد حاول القائد العام أن يتجنب فى تلك الآونة الالتحام مـع الفرنسيين فى معركة فاصلة حاسمة ، وبذلك أمكنه أن يلحق بهم خسائر أكثر عن طريق التحرش بهم ومناوشتهم بدون انقطاع .

وخلال ذلك كان يحمل يوميا عدد من الاسرى الفرنسيين الى المدينة ، من بينهم بعض الجرحى . ولما كنت قد توليت معالجتهم ، فقد علمت منهم أن الفرنسيين لم يواصلوا زحفهم على المدينة بسبب تأخر وصول السفن التي كانت تحمل على ظهرها المدفعية الثقيلة . وفى آخر الامر قـر عـزم الفرنسيين على الزحف الى الجزائر ، وعلى الرغم من أن القوات الجزائرية كانت تعترض طريقهم فى كل مكان ، فقد استطاعوا بشجاعتهم ودهائهم الوصول الى هضبة ، تمكنوا من نصب مدافعهم فوقها وتسليط حممها على قلعة الامبراطور .

وقذفت المدينة كذلك من جهة البحر لا أيام عديدة ، وذلك بعـد أن اقترب الاسطول من ميناء الجزائر ، وأصبح من غير الممكن أن يطمئن الانسان على حياته في أي حي من أحياء المدينة ، اذ كانت القذائف تطير فوق رؤوسنا مصفرة (47) . وقد أصيبت دور كثيرة اصابات بالغة ، بحيث انها لم تلبث أن انهارت انهيارا ، كان له دوي فظيع . وكانت النساء قد خرجن الى السطوح باكيات نادبات صائحات ، كأنهن يردن بذلك استدرار عطف الفرنسيين ، غير أن المدافع ظلت تصب حممها دون ما هوادة ، ولم تكن حاميات المدينة ترد عليها الا بصورة ضعيفة .

وكان أغلب اليهود قد تركوا المدينة خوفا من القذائف ، وصعـدوا جماعات الى الجبال التي ترتفع خلف المدينة ، ولكنهم لم يطمئنوا هناك على حياتهم ، فقد اتهمهم الانكشاريون بأنهم قد تسللوا ليلا الى معسكر العدو ، ولم يزودوه بالمواد الغذائية فحسب ، بل انهم دلوه أيضا على جميع الطرق التي تسهل له الصعود الى الجبال . وهكذا هاجم المسلمون اليهود الخونة وقتلوا بعضهم ونهبوا آخرين .

وضع الفرنسيون فوق الجبل المواجه للقلعة أكياسا ، كانوا قد ملأوها بالتراب ، وكانوا قد حملوها معهم لهذا الغرض من فرنسا ، ونصبوا فوقها مدافع اصطناعية ، وذات صباح أخذ الاتراك على حين غرة ، اذ راحت المدفعية الفرنسية الثقيلة تقذف القلعة بصورة مستمرة ، وقد دافعت حامية القلعة بقيادة سيدي القديم الخزناجي أفندي دفاعا مستميتا ، وكـانت تتألف من بضعة آلاف ، الا أن جدران القلعة كان قد تحطم أغلبها بعد سبع ساعات لم يتوقف القذف خلالها ، وقتل نصف الحامية ، فأمر القائد بوقف اطلاق النار ومغادرة القلعة المتداعية . أما الخزناجي أفندي نفسه فقد بقي فيها مع عدد من الانكشارية ، لينفذ المشروع الذي أوحى اليه اليأس بـه .

لقد ذر الخزناجي أفندي البارود فوق الطريق الممتد بين القلعة وباب المدينة ، وعند وصوله الباب أمر انكشاريا باطلاق النار من مسدسه ، وبعد لحظات تناثر قسم كبير من القلعة فى الجو محدثا دويا رهيبا . ولم يكن أحد فى المدينة قد عرف شيئا عن ذلك ، ومن ثم أثار هذا الانفجار الخوف والرعب بين السكان بصورة أكثر . غير أن الخزناجي أفندي قد خاب ظنه فيما أمل وتوقع . كان يعتقد أن حجارة القلعة كلها سوف تسقط فوق الجيش الفرنسي وتقضي عليه أو على جزء منه على الاقل، الا أن الفرنسيين لم يصب جندي واحد منهم (48) ، وكل ما فى الامر أنهم دفنوا تحت سحابة من الغبار ، بينما سقطت فوق المدينة أحجار كبيرة وألحقت بها أضرار فادحة .

لقد كان لهذه الحادثة أثر سيء فى نفوس السكان يستعصي على الوصف ، فعندما صفرت الحجارة وهدرت فى الجو ، وانقطعت زمجرة المدافع أيضا ، استبد بالمدينة ونواحيها صمت رهيب ، كما لو أنه لم يعد بها حي يرزق . وما أن زايل الناس ما خامرهم من ذهول صارم ، وغيبوبة منكرة ، حتى ترددت فى رأجاء المدينة كلها أصوات البكاء والنياحة . فقد كان هناك آلاف من الجرحى يتألمون آلاما مرة ، وصعد الاطفال والنساء الى السطوح وأخذوا يبكون بشدة ، بينما أسرع الرجال الى القصبة ليحملوا الداي على التفاوض مع الفرنسيين . ولعل الداي هو الوحيد الذي لم يجد الخوف سبيلا الى قلبه ، فقد رد رعاياه قائلا : « ان حسين باشا لن يتفاوض مع الفرنسيين ما وجدت القصبة ، ولأني لأفضل أن أنسف القصبة والمدينة كلها على أن أخطو خطوة كهذه (49) . »

وبعد أن عبر الداي عن عزمه على الاستمرار فى المقاومة ، اشتد الحرج والضيق بالمدينة كلها ، وكان السكان قد علموا بأن الداي أمر قواده أن يفعلوا بحصونهم ما فعله الخزناجي أفندي بقلعة الامبراطور ،

اذا هم عجزوا عن الدفاع عنها . الا أن بعض الوزراء وجميع الموظفين والضباط وكذلك التجار والعلماء دعوا الى عقد اجتماع سريع للتشاور ، واتفقوا على التفاوض مع الفرنسيين فى اللحظة الراهنة . وبعد أن استقر الرأي على هذا أرسل وكيل الخرج رسولا على ظهر قارب ، يحمل الراية البيضاء ، الى قائد الاسطول الفرنسي ، الذي كان قد بدأ يقترب من المدينة ، ولكن القائد الفرنسي رفض المفاوضة مع الداي ، وطلب منه أن يستسلم بأسرع ما يمكن للجنرال بورمون ، قائد القوات البرية ، والا فانه سيستأنف قذف المدينة فى الحين .

وألح على الداي من حوله من الوزراء والعلماء وكبار الموظفين ، فخضع لهم أخيرا واستجاب لرغبتهم ، وأرسل رسولا الى بورمون ، فأجابه هذا بأنه لم يعد هناك ، بعد أن كادت المدينة تسقط فى أيدي الفرنسيين ، مجال للمفاوضة ، وأن عليه أن يسرع بتسليم المدينة طوعا أو قسرا (50) . وبعد هذا وجه الداي رسولا ثانيا ، ليحصل على ضمانات لنفسه وللمدينة على الاقل ، وهدد بأنه سينسف المدينة بأكملها ان لم يجب الى طلبه . ووقع بورمون صك الاستسلام مع الداي ، وقد تعهد فيه بحفظ حياته وحياة المواطنين وممتلكاتهم وحرماتهم كما ضمن لهم حرية ممارسة الطقوس الدينية ، على أن يسلم الجزائريين مقابل ذلك كل ما فى أيديهم من بنايات عامة وقلاع وحصون (51) .

وعندما تم التسليم عصر ذلك اليوم ، انقطع هدير المدافع وانتهت الحرب ، واستولى الاسطول الفرنسي على الميناء ، واحتل الجيش جميع الهضاب والمرتفعات الواقعة حول المدينة ، ونصبت فوقها الاعلام الفرنسية ، وكان من المتوقع أن يدخل الجيش المدينة صبيحة اليوم التالي .

وهكذا انحلت عند الاصيل جميع أربطة الحكومة الجزائرية ، التي تحدت أروبا بأسرها خلال عدة قرون ، فترك الداي ووزراؤه قصورهم وانتقلوا الى منازلهم الخاصة ، كما ترك جميع الموظفين والحراس وظائفهم ، حتى الائمة غادروا مساجدهم وأسرعوا الى بيوتهم . وأصبح فى امكان العبيد أن يتجولوا بحرية بعد أن تعذبوا داخل البيوت ، فعمت الشوارع الحرية والمساواة ، فلم يكن فيها عبيد ولا سادة .

وفى غمرة هذه الفوضى ترك الانكشاريون عملهم فى غرف التمريض ، ومضى معهم المرضون أيضا ، فكان أن بقي مرضاي بدون عناية . وقد شعرت بهذه الخسارة شعورا مؤلما ، اذ أنه كان علي أن أضمد عددا كبيرا من الجرحى ، حملوا من قلعة الامبراطور ، قطعت لاثنين منهم ساقيهما ، الا أني كنت أعلل نفسي بأن الجراحين الفرنسيين سيحلون محلي فى معالجة المرضى صباح غـد .

وفى المساء دعا العلماء الاتراك الانكشاريين الى عقد اجتماع فى ثكنة كبيرة للتشاور معهم فيما اذا كان فى الامكان انقاذ المدينة . فاجتمع حوالي ألف شخص ، وبعد أن تشاوروا مدة طويلة وعرفوا أنه لم يعد هناك بعد مجال لانقاذها من الفرنسيين ، تساءل المفتي هل من الافضل للجماهير الشعبية أن تشق لنفسها طريقا عبر الجبهة الفرنسية الى داخل البلاد أم أن تلقي السلاح وتستسلم للفرنسيين . فاختار قسم من الانكشاريين الرأي الاول ، ولكن أغلبهم مال الى الحل الاخير ، ووقف الى جانب السكان الذين رغبوا عن تلك المحاولة اليائسة ، اعتقادا منهم بأن من شأنها أن تثير حنق الفرنسيين وسخطهم عليهم ، فتغدو حياتهم وحياة أطفالهم ونسائهم وممتلكاتهم عرضة للخطر (52) . وبذلك رفض اقتراح المفتي الخاطيء ، لأنه كان ضد شروط الاستسلام ، ولم يكن الداي قد عرف عنه شيئا . ان الغاءه كان من حسن حظ المدينة كلها .

الفصـل التاسـع عشر

الفرنسيـون فى الجزائـر

وفى صبيحة اليوم التالي ، وهو يوم 6 جويلية سنة 1830 ، ارتفعت أصوات الفرنسيين المنتصرين فى التاسعة صباحا ، معبـرة عـن السرور والبهجة ، فدخل المدينة بعض الجنود من الفرقة الاولى والثانية ، وهم يدقون الطبول ويقدمون ألعابا على أنغام الموسيقى العسكرية . وكانت الانغام تتصاعد بفتور ورهبة فى شوارع الجزائر ، التي لم تكن قد عرفت أقدام المحاربين الاروبيين، ولا كان لها عهد بوقع حوافر خيولهم . فانسحب النساء والاطفال الى بيوتهم ، وقد أفزعهم ايقاع تلك الانغام وصخبها ، فى حين جلس الرجال أمام أبواب منازلهم ، واضعين رجلا فوق أخرى ، فى حزن وكآبة وانكسار ، وكانوا ينظرون الـى استعراض المنتصرين ، وهؤلاء يمرون بهم فرحين مبتهجين .

كنت واقفا أمام المستشفى حين اقتربت مني فرقة من المشاة ، يتقدمها جنرال ، وكان هو وضباطه يحيون المسلمين بلطف عند مرورهم أمامهم ، حتى أني سمعت كثيرا من الاتراك يقولون : « انظروا الى هؤلاء الكفار ! لقد انتصروا علينا ، ومع ذلك فان معاملتهم لنا تتسم بالمروءة والشهامة . لو كان النصر لنا ، لسلكنا معهم مسلكا آخر ! »

وعندما وصل الجنرال الى المستشفى ، توقف لحظة ليتأمل بنايتـه ، فمضيت اليه وأخبرته بأنها كانت فى السابق ثكنة للانكشاريين ، وهي الآن

مقام لما يقرب من ألف جريح . فنظر الي بدهشة ، وازدادت دهشته حين قلت له بأنني ألماني وأني الطبيب الوحيد فى المستشفى ، أعاني آلام الاسر فى الجزائر منذ خمس سنوات . فقال : « يا الهي ! اني لأشعر أمامك ، أيها الشاب ، باحترام بالغ ! » وهنأني هو وضابط له ، كان يتكلم الالمانية ، بحصولي على حريتي ، ثم أخبرني بأنه الجنرال دامريمون ، وطلب مني أن أزوره فى قصر مولاي ، الذي قضيت فيه أنا نفسي مدة طويلة (53) . فوعدته بذلك وانصرفت عنه لأرمي ببصري الى الميناء الصاخب ، الذي كانت تستعد للرسو فيه فى تلك اللحظة ستمائة سفينة حربية وتجارية .

وعند الاصيل أرسل الخزناجي أفندي فى طلبي الى القصر بسرعة ، وكان هو الوحيد من الوزراء الذي مكث فى مكانه ، ليقدم للجنرال بورمون مفاتيح الخزينة . ولما انتهى من ذلك رجع الى قصره ، ولكنه وجد أن الفرنسيين قد احتلوه واتخذه ذلك الجنرال مسكنا له ولضباطه ، وكانوا قد دخلوا جميع الغرف ، ولم يتراجعوا حتى عن قلع أبواب عدد كبير منها ، ومن المرجح أنهم فعلوا ذلك بدافع الفضول . فغضب الوزير غضبا شديدا ، لأن الفرنسيين لم يحترموا أملاكه الخاصة ولا شروها بثمن بخس ، فاحتج على تصرفهم هذا ، الا أنهم لم يفهموه ، وفى ضيقه هذا أرسل يدعوني أكثر من مرة . وعندما جئته رجاني وألح فى الرجاء بأن يسمح له بنقل ممتلكاته وقال : « اذا هم أخذوا ثروتي ، فان لهم أن يأخذوا حياتي معها . فما تراني أفعل وقد أصبحت فقيرا معدما . »

فتأثرت لشكواه أشد التأثر ،وقررت مساعدته فى الحصول على مطالبه البسيطة بالنسبة لي قدر ما أستطيع ، فذهبت الى من أعرف من الضباط ، وثرت فيهم على تصرفاتهم المشينة وطلبت منهم اعادة أموال الخزناجي وأملاكه ، غير أنهم ردوني خائبا . فساعدني عدد من الضباط ، ومن بينهم الالمان ، على التوجه الى الجنرال نفسه، فقابلته وذكرته بشروط الاستسلام

التي اتفق عليها الجنرال العام مع الداي . وحينئذ رخص لي بحمل الوزير وممتلكاته الى منزله الخاص ، ومأر داميمون بأن يرافق الوزير الى بيته حرس يتألف من اثني عشر جنديا .

فبكى الوزير في الطريق ، وطلب مني منديلي لمسح دموعه ، وأعطاني حفنة من القطع الذهبية لتوزيعها على الجنود . ثم أمرت أربعين حمالا بنقل ما تبقى من ممتلكاته مما لم يرسله الى حريمه ولم يستول عليه الفرنسيون ، كما سمح لي الجنرال بأن أرسل معهم عددا من الجنود لحراستهم ، ولولا وجودهم لكان من الصعب أن يصل الى الوزير نصف أملاكه على الاقل ، فقد كانت الفوضى تعم شوارع العاصمة الجزائرية ، فالجنرال لم يفعل ذلك عبثـا .

ولما ذهبت الى الخزناجي أفندي فيما بعد ، كانت فرحته بي لا تعرف الحدود ، لأني خدمته بكل اخلاص وتفان ، وهتف مرات كثيرة قائلا : « سأشكر لك جميلك أبدا ، وأكافئك مكافأة أميرية . » فابتهجت لذلك وسررت به سرورا كبيرا ، وشعرت بالفخر والاعتزاز ، الا أن مثلنا القائل « قلما يسمن الكلب البليد » ينطبق علي أيضا . فلو كنت آنئذ ذكيا لطلبت منه هذه المكافأة ، ولحصلت على هدية تقدر بآلاف القطع النقدية ، الا أن مشاعر وأحاسيس من نوع آخر قد حالت ــ والحمد لله ــ بيني وبين ذلك . ومع أني قد عانيت من الضيق فيما بعد ، واشتدت علي الحاجة ، فاني لم أندم أبدا على أني كان لي آنذاك هذا المسلك ولم يكن لي غيره . واستطعت أن ألتزم الهدوء أمام أصدقائي ، الذين عاتبوني عتابا مرا بعد رجوعي ، وأن أقول لهم بأن ضميري قد بقي نقيا في الجزائر ، ولو أقام الوزير مدة طويلة في المدينة لوفى أكيدا بوعده . فقد اكتشفت مآمرة ضد

الفرنسيين . كان هو على رأسها فيما يقال . فقبض على المتآمرين جميعا ، وقامت السفن الحربية الفرنسية بنقلهم الى تركيا (54) ، وبذلك فقدت الامل في الحصول على المكافأة .

وعندما رجعت من المستشفى الى غرفتي في القصر ، وجدت أن بابيها قد خلعا أيضا ، واختفت منها جميع أغراضي وأمتعتي ، ومن ضمنها كثير من الالبسة الجميلة ، ومبلغ من المال ، وعدد كبير من التحف ، التي استلمتها من الداي عن طريق الوزير أو أهداها الي الوزير نفسه . وكانت غرفتاي تحتويان ، بالاضافة الى الاثاث العادي الجميل ، على زربية تركية نفيسة ، وعدد من المرايا ، تم صنعها في مدينة ترياسته الايطالية ، وساعة موسيقية انجليزية وغيرها . لقد فقدت هذه الاشياء كلها ، ولم يبق لي سوى ما كنت أحمله على بدني . غير أن شعوري بأني أصبحت حرا أتاح لي أن أتحمل هذه الخسارة ، بل اني لم أحس بها تماما ، حتى أني هتفت في فرحتي فلينعم بها من أخذها ! فلم تكن بي حاجة الى شيء غير حريتي . ثم انه كان من السهل أن يغفر للجنود ما فعلوه في مناسبة كهذه ، خاصة وأن قصرنا الجميل لم يكن به أحد عندما دخله الفرنسيون . ولابد من القول بأن من حق الامة الفرنسية أن تفخر بأن تصرفات قواتها عند الاستيلاء على الجزائر لم يكن فيها ما يخجل ويشين ، وهذا ما لم يكن ينتظر من أمة أخرى في مثل هذه الحالة ، وليس من الضروري أن تنسب بعض الجرائم التي ارتكبت الى الجنود الفرنسيين ، بل الى أولئك الاوباش الذين رافقوهم لمجرد السلب والنهب .

*وقد كان هناك أيضا عدد من المترجمين ، ومن حسن الحظ أنهم لم يكونوا كثيرين ، كان سلوكهم شنيعا ، ولو أن عددهم كان ضخما لنهبوا المدينة كلها . وهم في الغالب من اليهود الذين كانوا يرتدون الزي العسكري الفرنسي ، فدنسوه بشكل مثير للغضب . فقد ذهب مثلا يهودي

من تونس الى المراعي عدة مرات ، وساق بنفسه مائات من الاغنام لبيعها في المدينة الى أمثاله ، وكذلك كان يفعل بالخيول والبغال . وقد حدث ذلك في الايام الاولى ، التي عمت فيها الفوضى ، وكان الاهالي يختفون بمجرد رؤية الزي الفرنسي .

وهناك يهودي آخر ، أصله من ايطاليا ، كان قد رمى من فوق سقف البيت ، الذي كانت تسكنه أرملة الآغا السابق يحي أفندي ، عددا من السيوف والمسدسات الى فناء الدار ، وكان الاحتفاظ بأي نوع من الاسلحة محرما على الجزائريين ، ولكن ذلك اليهودي الحقير تمكن من الحصول على بزة عسكرية فرنسية واقناع خمسة عشرة جنديا من الادنياء ، وعدهم بعشرة دنانير ، من الانضمام اليه . ودخل بهم بعد ذلك فناء دار الارملة ، واتهمها ، وهو يقوم بجمع الاسلحة التي ألقاها بنفسه الى فناء الدار ، بالتآمر على الدولة وخيانتها ، لأنها احتفظت بالاسلحة في منزلها ، وخالفت بذلك أوامر السلطات .

فبكت الارملة وأقسمت له بأنها بريئة لم ترتكب أي ذنب ، الا أن النذل المحتال كان يقول لها انها لا تستطيع أن تنقذ نفسها من الموت الا اذا هي أعطته أربعين ألف دينار . وعندئذ اكتشفت الارملة الذكية أمره ، وعرفت غشه وخداعه ، فادعت أنها لا تملك هذا المبلغ ، ولكنها سترسل ابنها لجلب مبلغ آخر ، وأوصيت ابنها بالذهاب الى الجنرال لاخباره بذلك .

وحين وصلت فرقة من الجنود لالقاء القبض على المخادعين ، كان هؤلاء ، والظاهر أنهم قد شعروا هم أنفسهم بالامر ، قد اختفوا ، غير أن ابنها الشاب أكد لهم أنه يستطيع أن يكشف شخصه من بين المجرمين جميعا . ولما دعى المترجمون الى اجتماع عام عرفه بالفعل وأشار اليه ×

فقدم للمحاكمة واصدرت المحكمة العسكرية حكما ضـده ، غير ان مجهودات رئيس الطائفة اليهودية باكري قد أدت الى تخفيف الحكم عنه ، فطرد من كتلة المترجمين (55) .

وفى اليوم الثاني من دخول الفرنسيين الى الجزائر قدمت طلبا الى القائد العام ، أعربت فيه عن رغبتي فى أن يتولى الاطباء الفرنسيون معالجـة الجرحى الجزائريين ، فأمر الجنرال بورمون فى الحال بقدوم ثمانية أطباء وطبيب عسكري من سيدي فرج ، لأن المستشفى الرئيسي كان لا يزال هناك ، وبذلك أصبح فى الامكان انقاذ الكثير من جرحاي . فقد وصل فى اليوم التالي الاطباء التسعـة ، فتنازلت للطبيب العسكـري السيـد شونبولد عن وظيفتي بكل سرور ، الا أني مكثت معهم بعض الوقت ، لأساعدهم فى التضميد من جهة ، وأقوم بالترجمة عند الضرورة الملحة من جهة أخرى ، اذ أن الفرنسيين لم يكن فى استطاعتهم الحديث مع المرضى . يضاف الى ذلك أنه كان لابد لي أيضا من أن أحاول جهدي اقناع المرضى بأن الفرنسيين سيعالجونهم بدورهم باخلاص وبصورة جيدة .

واستمرت مساعدتي للأطباء الفرنسيين ثلاثة أيام ، تعرفت خلالها الى عدد من الضباط الفرنسيين ، أخص بالذكر منهم كونراد الشتراسبورغي ، قائد الفرقة الثانية ، الذي أحسن الي وأنعم علي فيما بعد ، وغوستاف فون مونتبيلو ، ابن الجنرال لان ، وهناك آخرون لا أستطيع الاتيان على ذكرهم جميعا ها هنا ، ولكنني سأذكرهم أبدا . وقد التقيت فى الجيش بعدد من مواطني ، وأفضلهم الامير شفارتنبيرغ (56) . وغوستاف بوخ ، مساعد دوق مقاطعة ساكسن ماينتغن ، الذي عرف فى الجيـش باسـم الساكسي الشهم ، وكان أجمل رجل رأيته ، وأشجع جندي فى المعركة ، وأفضل انسان تعرفت عليه أثناء رحلاتي لما له من ثقافة عالية وخلق قويم ، وبما أنه كان لا يتكلم الا الالمانية ، فاننا لم نلبث أن أصبحنا صديقين .

ومنذ دخول الفرنسيين أصبحت المدينة كأنها معكوسة ، فقد أمر العزاب من الانكشارية ، وعددهم ألفان وخمسمائة ، بالحضور الى الميناء ، وذلك لتنقلهم السفن الحربية الفرنسية الى ازمير (57) ، كما أسرع الاسرى الى السفن للعودة الى بلادهم وأوطانهم ، باستثناء من انضم منهم الى الجيش الفرنسي . وخرج اليهود يطوفون فى الشوارع فرحين مبتهجين ، ونظرا لأنه كان محرما عليهم سابقا ارتداء غير الثياب السود والزرق الغامقة والركوب فى شوارع المدينة ، فقد ارتدى بعضهم قلنسوات حمرا ، وراحوا يجوبون الشوارع وهم راكبون على البغال ، وكانت الآلاف تسير خلفهم وتصيح « يهودي مسرح ! » وكانت أصوات هذا الشعب القذر تتعالى بهتافات « فيفا لافرينصيص ـ يحيا الفرنسيين ! » ، فأظهر بذلك أنه غير جدير بالحرية .

ولما أن رأى اليهود أن الفرنسيين يفضلونهم على أبناء البلاد ، حتى ركبوا رؤوسهم وتظاهروا بالشجاعة ، واتسمت تصرفاتهم بالجرأة والوقاحة، فكانوا يعتدون على المسلمين ، لا سيما الاطفال منهم ، حين يلتقون بهم فى طريقهم ، ويسيئون معاملتهم بصورة فظيعة ، ومع هذا الغرور والتعالي والعجرفة فاني أعتقد أن فى استطاعة تركي واحد مسلح أن يهزم الآلاف منهم . الا أن القائد العام سرعان ما وضع حدا لغرورهم هذا الى حد ما ، وذلك عندما أنشأ مجلسا بلديا (58) ، يتكون من أغنياء المدينة ، للمحافظة على الحقوق والنظم بين المسلمين (59) .

ولكن هذا المجلس البلدي كان متعصبا جدا ،فقد كان عادلا فى معاملته للعرب الى حد ما ، غير أنه أجرم فى حق من بقي من الاتراك اجراما كبيرا ، فظهر حينئذ أنهم قد أصبحت لهم تلك المكانة التي كانت لليهود سابقا . والذي أعجبني فى الاتراك أنهم لم يخضعوا ويخنعوا خضوع العرب

واليهود وخنوعهم فى الزمن القديم للعنصر التركي ، فقد احتفظوا بما كان لهم من غرور بليد وجبروت ، وتفوقوا عليهم حتى فى أيام محنتهم .

ولعل بعض القراء ينتظرون مني أن أذكر لهم الآن شيئا عن كنوز الداي الشهيرة ، ظنا منهم بأني أعرف عنها الشيء الكثير ، وذلك بحكم اقامتي الطويلة فى الجزائر . والواقع أنه لم يكن فى الجزائر ما يستحق السرية والكتمان أكثر من مبلغ ما فى الخزينة ، وأنا أعرف من مصدر موثوق به أن الجزائر كلها كانت تجهل مبلغ ما تحتوي عليه خزانة الدولة باستثناء الداي والخزناجي أفندي . ويجب أن أضيف أيضا أنه لم يكن من اللائق أبدا السؤال عن الخزانة ، لأن مثل هذا السؤال كان لابد أن يثير الشبهة حول السائل ويكشف عن طمعه فيها ، ولم يجرؤ أي من الاتراك على الحديث عنها أمامي ، وعندما سألتهم عن الخزانة تهربوا من الجواب . وقد بدا فى النهاية أن الناس لا يعرفون الا أمرين مهمين كريمين ، هما القرآن وخزانة الدولة . وهذا التكتم كله مرده الخوف من أن يعلن السلطان التركي أو أي ملك أروبي الحرب على الجزائر ، وذلك بقصد الاستيلاء على خزانتها ، فقد تنبأ مرابط قبل مدة طويلة بأن قوة ستعبر البحر لتحارب الجزائر (60) ، فتنتصر عليها وتستحوذ على خزانتها !

الفصــل العشرون

اقامتي لدى بــاي تيطــري

كنت قد دعيت ظهر أحد الايام كثر من مرة من قبل باي تيطري للحضور عنده ، ولكنني أدعيت مرة التعب وأخرى كثرة الاشغال كما انتحلت مختلف الاعذار ، لأني لم أكن أعرف ماذا يريد بي ، ولهذا لم أمض اليه الا حين جاءني منه حصان حملني الى حيث يقيم . فوجدته فى منزل جميل تحف به البساتين الغناء ، مع مفتي الجزائر ، فاستقبلاني استقبالا حسنا ، وخاصة المفتي الذي كانت لي به معرفة قديمة ، تعود الى تلك الايام السالفة التي كان يزور فيها الخزناجي أفندي قبل مدة طويلة . وبعد أن حدثني المفتي وأثنى على الخدمات التي قدمتها للمسلمين ، أخبرني بأن بــاي تيطــري قد دعي من طرف القائد العام بورمون ، ليكون آغا أفندي ويتولى مهام مدينة الجزائر كلها ، وهو يعرض علي أن أكون خازنــداره وترجمانــه وطبيبه ، لأنه لا يوجد حوله الا القليلين ممن يعتمد عليهم ، ويثق بهم .

وعلى الرغم من أن هذه الوظيفة كانت مغرية بالنسبة لي ، فقد وجدت عدة أسباب تحملني على رفضها ، فشكرت السيدين على الثقة التي منحاني أياها ، ثم لاحظت بأدب أني لا أستطيع أن أتولى لديهما هذا المنصب الخطير . وبينما غضب الباي وأرعد وزمجر ، أخذ المفتي يلح علي ويشتد فى الالحاح . وطلبا مني أن أذكر لهما الاسباب التي تحملني على هــذا الرفض ، فقلت :

ـ لقد أتيح لي أخيرا ، بعد سنوات قضيتها فى عذاب أليم ، أن أتخلص من عبودية الاتراك ، التي فرضت علي أن أقيم بعيدا عن بلادي . فهل ينبغي لي الآن أن أستبدل مرة أخرى هذه الحرية الذهبية بعبوديتكم الذهبية ، فأربط مصيري بمصيركم ؟ يضاف الى ذلك أن وظيفة الخازندار لديكم لا يستطيع أن يبقى فيها المسلم مدة طويلة ، ومن لم يستطع تركها مختلسا أو خداعا ، فلابد أن يذهب بعد حين ضحية الحساد أو مزاج البــاي .

فقهقه الباي وقال :

ـ انها لأسباب لا تحمل الرجل الشهم على رفض هذا المنصب ، فعندما جعلني الداي بايا لتيطري ، كان لي أكثر من سبب وجيه لرفض ذلك ، ولكني لم أفكر فى الرفض مطلقا ، ولم أندم على موافقتي عليه الى يومنا هذا . فتقلد أنت هذه الوظيفة ولن تندم عليها أبدا ، فأنت الآن حــر . وعلى فرض أنك لا تزال عبدا ، فانك ما كنت لتجد عندي ما تشكو منه ، فالمسلم يحترمك ويجلك وأنت عبد أيضا ، ومسلكك وتصرفاتك السابقة ، التي حدثني عنها المفتي قبل حين ، تشهد لك بذلك . أما خوفك من مزاجي المتقلب ، فليس له ما يبرره بالنسبة لي ، فاني حتى الآن لم آمر بقتل أحد من موظفي، كما أني لا أقيم للنميمة والوشاية وزنا أبدا، واذا انتابتني بين الحين والآخر نوبة غضب وثورة واهتياج ، فلابد أن يتنحى كل شيء عن طريقي ، وبعد ذلك تعود الامور الى نصابها ، وحسبك أن تضمن لــك كلمتي الاميرية هذا .

وحاول المفتي بدوره اقناعي بالقبول ، وأقسم لي برأس النبي بأني لن ينقصني شيء أبدا ، واقترح على الباي ، لكي أعتمد على كلمته وأطمئن اليه ، أن يصدر فرمانا (مرسوما) بشأني ، يتم التوقيع عليه من طرفه هو

ومن طرف الجنرال بورمون . فوافق الباي على ذلك ، وأملى على المفتي ما يأتي :

« نحن مصطفى ، باي تيطري ، نأمر بتعيين حامل هذا المرسوم الحر خازندارا وترجمانا وطبيبا خاصا لنا ، ونعاهده على أن نبالغ في احترامه وأن نخلع عليه سنية ما اختار قربنا ، وفضل البقاء عندنا ، وأن نسمح له بأخذ أمواله وترك خدمتنا متى شاء وأراد . »

وتبع ذلك توقيع المفتي ، ثم خاتم الباي ، لأن هذا لم يكن يعرف الكتابة ، ووعدني بأن أركب معهما عصر ذلك اليوم نفسه الى القصبة ، للتصديق على المرسوم من طرف الجنرال بورمون . فوعدته أنا الآخر بالبقاء عنده ، فأمرني في الحين بلهجة صارمة أن أترك المكان ، الذي كنت جالسا فيه ، وأجلس بينه وبين المفتي ، وقدم لي علبة سعوطة ، ثم قال لي بنبرة ودية :

ـ اذا أردت أن تبقى عندي ، أيها الكلب الملعون ، فيجب أن تعفيني من عبارة خوجة ـ لافلري (لقب يخاطب به العلماء .) يجب أن تكون معي دائما حرا صريحا ، الا اذا غضبت ، فاني أنصحك بالابتعاد عني . مر الآن بأن تحضر لنا النارجيلة والقهوة !

فأمرت بذلك ، وشرب الباي أفندي ، والمفتي أفندي ، والخازندار أفندي الجديد القهوة معا لأول مرة . وعندما كنت أحدث الباي والمفتي أحاديث مختلفة ، أقبل ما يزيد على العشرين من خدم الباي لتقبيل يدي وتهنئتي بمنصبي . فأخرجت محفظة نقودي وأعطيت كلا منهم قطعة نقدية، كما جرت العادة ، الى أن فرغت من ذلك . ولما لاحظ الباي أن مالي لا يكفي ، قال لبقية الخدم :

– ألم تنتهوا بعد ، أيها الكلاب ؟ أتركوا الآن خازنداري وشأنه !
وقدم لي بعد ذلك مفتاحا وأمرني أن أفتح صندوقا ، كان قريبا منه ، لأتناول كيسا مملوء بالدولارات وأضعه في جيبي ، ثم قال :

– والآن فلنركب ونذهب الى القصبة لمقابلة القائد العام ، وستكون هناك في حاجة الى المال .

وعندئذ أمرت خادم الاسطبل بتهيئة الخيل للباي وللمفتي ولي . وكانت أمام باب الحديقة فرقة من الرماة ، أقامها الجنرال لحراسة الباي . ولما وصلنا الباب رفعت الفرقة كلها بنادقها تحية واكراما للباي ، فسألني عن معنى هذه المناورة ، ولما شرحتها له فرح بذلك أشد الفرح ، وأمرني بتقديم حلوان للجنود . فأعطيت الملازم حفنة من الدولارات ، وطلبت منه أن يوسع على نفسه وعلى جنوده عصر ذلك اليوم نفسه ، فصاح بي الباي :

– أيها الكلب البخيل ، ان ما قدمته للكلاب لقليل جدا ! أتريد أن تقتصد منذ الآن ؟ انتظر الى أن نصل أواسط الجزائر ، فهناك يمكنك أن تقتصد مع العرب بما فيه الكفاية !

فقدمت للملازم حفنة أخرى من الدولارات ، وحينئذ هتف الجنود :

– يحيا الباي !

ثم طلب مني أن أطلب من الجنود القيام بعرض قصير أمامه ، ففعلت ذلك ، ورغب أخيرا في أن يطلق الجنود النار أيضا ، غير أني أوضحت له أن هذا شيء لم يتعوده الحرس ، فقهقه ثم ابتعد . وركبت الى جانبه دون أن أنبس الى أن بلغنا باب المدينة ، وعندما وصلنا في النهاية القصبة ، طلبنا مقابلة القائد العام ، الا أنه اعتذر بموت ابنه آنئذ (61) ، وضرب لنا موعدا في يوم آخر ، فرجعنا الى حوش الباي من غير أن نقضي حاجتنا .

وفى المساء دعوت ضباط الحرس ، وسقيتهم الخمر وعصير البرتقال ومشروب الليمون . وما أسرع ما خرج الباي ملتفا فى برنوسه وصاح بي مستغربا :

— كيف تتجاسرون على شرب الخمر فى بستاني ؟

— فقلت له :

— أيغضبك هذا ؟ اننا نشرب نخب صحتك واستمرار حكومتك !

ثم هتفنا ، ونحن نستعد لافراغ الكؤوس فى حناجرنا :

— يحيا مصطفى باي !

فقال ضاحكا :

— اني أنا الآخر أتعاطى الخمر بين وقت وآخر منذ مدة طويلة ، ولكني لا أود الجلوس اليكم . لذا جئني بزجاجة الى البئر !

فحملت اليه زجاجتين وعدت فى الحين ، ولا شك أنه شربهما ، وقد أتيح لي فيما بعد أن أشرب معه فى بعض الحفلات .

ويطيب لي الآن أن أخص الباي نفسه ببضع كلمات ، وأتحدث عن بعض طبائعه . لقد كان مظهره قاسيا منفرا ، ولكنه لم يكن خبيثا دساسا محتالا مثل مولاي السابق الخزناجي أفندي ، بل كان نزقا شجاعا ، بلغت به شجاعته فى المعارك حد التهور ، كما أنه كان يغالي فى كل شيء ، ومع ذلك كان يستخف بحياة الحريم الرخوة المائعة ، ويفضل امتطاء صهوة جواده والصيد والتسكع ليلا ونهارا . ومتى كسب أحد ثقته ، فان فى وسعه أن يتصرف معه كما يشاء ، ويلعب معه مثلما يلعب مع طفل حسب رغبته . وقد منحني ثقته منذ أول يوم لي معه ، ولم أحاول استغلال ثقته

هذه ، بل ان ذلك لم يدر بخلدي قط ، ومن ثم استطعت كسب ثقته مني بأسرع ما أمكن ، فكانت علاقتي به طيبة للغاية . وقد سألني عدة مرات عن رأيي فيه ، فقلت له بصراحة :

ـ اذا استثنيت طيشك وحدة غضبك ونزواتك الاخرى الكريهة ، فان فى امكاني أن أعدك على أية حال انسانا خيرا معتدلا .

فقال لي حينئذ :

ـ لقد أصبت ، أيها الكلب العزيز . ها أنت قد نطقت بالحق ! اني لأرجوك أن تعاتبني بشدة وتلومني ما وجدت الى اللوم منفذا . فاني غالبا ما يعتريني الجنون !

الا أني لم أستفد من هذا الحق الذي جعله لي على نفسه ، فقد كنت أقيم دائما حاجزا معينا بيننا نحن الاثنين ، ولم أسمح لنفسي أبدا أن أعامله بنفس الطريقة التي يعامل بها هو غيره ... الا فى حالتين ، أذكر أني توجهت اليه فيهما بعتاب شديد . فقد ثار مرة أثناء جولة على ظهر جواده فى رئيس أسطبله ، لأنه أعد له جوادا آخر غير أحب جواده اليه ، فاستل سيفه وأراد أن يضرب العربي الفزع المذعور به ، ولكني وثبت بينهما . واستطعت لحسن حظي أن ألفت نظره الى العرض ، الذي كانت تقوم به فرقة الجنرال بيرتيزين قربنا ، فالتفت بسرعة ونسى غضبه وثورته . ثم عاتبته فيما بعد على سلوكه ذاك عتابا مرا ، فاحتمل ذلك العتاب مني بكل هدوء ، وأطلق على نفسه اسم الاحمق الكبير عدة مرات .

وقضيت أسبوعين ممتعين برفقة باي تيطري ، كنت خلالهما أذهب معه يوميا الى الصيد ، وأحيانا أذهب مع الضباط الفرنسيين ، أو أركب الى المدينة ، حيث أتيح لي أن أتعرف على عدد من الضباط الالمانيين والفرنسيين

وبعض الاطباء أيضا . ولم أتخل كذلك عن زيارة الداي والخزناجي أفندي قبل سفرهما كلما سنحت الفرصة بذلك (62) .

كان الباي فى ذلك الاثناء غاضبا جدا ، لأن الجنرال العام تركه ينتظر مدة طويلة ، وجنح الى مماطلته دون جدوى . وكان بورمون قد وعد الباي بالاعتراف به آغا أفندي واسناد القيام بمهام المدينة اليه بشرط أن يسلم الباي جميع الضرائب للفرنسيين كما كان يسلمها سابقا للداي . والحق أنه لم تكن للباي المتعجرف نية ولا غاية أخرى غير أن تكون له سلطة على الجزائريين ، الذين كانوا يرتعدون خوفا أمامه ، وكان على استعداد لجلب حريمه وخزينته ، التي كانت تحتوي ، كما أكد لي ذلك بنفسه ، على حوالي مليون دولار ، من تيطري الى الجزائر رهنا . حقا لقد كان ذلك ضمانا كبيرا لحصوله على هذا المنصب ، ولكن بورمون لم يرض به ، اذ أقنعه بعض الاغنياء من العرب واليهود ، الذين كانوا يكنون للباي العداوة والبغضاء ، بأن يخلف وعدا أعطا له ، ولابد أن يكونوا ، فيما أعتقد لسبب وجيه ، قد رشوه بأموالهم .

وبعد أن بسط له بورمون آمالا عريضة فارغة ، أرسل اليه أخيرا من يقول له انه لا ينبغي له أن يأمل بعد فى الحصول على وظيفة الآغا ، فقد أعطيت لتاجر عربي ، وأن عليه أن يترك مدينة الجزائر وما يدانيها من الضواحي والقرى .

وكم أدهشتني مآمرات القائد العام هذه ، الا أني انتبهت الى أنه لم يعد هناك مجال لتلافي ما حدث . فلو أني كنت قد أشرت على الباي الساذج المتهور أن يقدم لخائن واترلو (63) هدية من خمسة وعشرين أو ثلاثين ألف دولار ، لكنا على يقين من أن نعمة فاتح القصبة وفضله سيكونان من نصيبنا ، ولكن التاجر العربي الذكي سيدي حمدان (64) كان قد سبقنا

الى ذلك ، لأنه كان أدرى بالترغيب فى أمواله منا فى أموالنا . أضف الى ذلك أنه كان قد حظي بتأييد اليهودي باكري ، وزير مالية القائد العام ، واتفق معه . كما سمعت من نواح مختلفة ، على أن يبيع اليهودي ، دون علم السلطات الفرنسية ودون أن يصلها من ذلك شيء ، كل المحصولات التي يأخذها الآغا من العرب ، واذا وصل ذلك الى علم الجنرال الجشع ، فان فى الامكان أن يملأ حلقه ذهبا .

واستاء الباي لغدر القائد العام أشد الاستياء ، وراح يسخر منه ويستخف به ويقول : « ما دام الفرنسيون لا يريدونني صديقا لهم ، فلسوف أكون اذن ألد أعدائهم . وسأبذل كل ما فى وسعي لاثارة الجزائريين ضدهم ، ولن أعرف الراحة حتى أنتقم من الخونة لهذه الاهانة الصريحة . » وأمرني أن أشرف على جمع الامتعة وأنظم أمر الرجوع الى تيطري . وكنت أخوض معركة كبيرة بيني وبين نفسي ، فلم أكن أدري ماذا أفعل . هل أبقى مع الباي بعد أن أظهر عداوته الشديدة للفرنسيين وأصبح أنا الآخر عدوا لهم ، أم ينبغي لي أن أترك الباي مصطفى ، هذا الرجل الطيب على غلظته وقسوته ، الذي منحني ثقته كلها ولم يفكر يقينا أني سأتركه فى يوم من الايام ؟ وأخيرا قر عزمي على هذا الامر الاخير ، وأسرعت الى الباي لأودعه ، فصاح بي مندهشا :

ــ أتريد أن تتركني أنت أيضا ؟ لا تفعل ، فأنت صديقي ! ان تركتني ، فأنت خائن ، واذا خنت الصديق ، فانك لن تهنأ أبدا .

فقلت له :

ــ سأمضي فى سبيلي دون أن أخونك ... واني لأشكر لك صداقتك لي . ومهما كانت لي رغبة فى البقاء معك للتمتع بصداقتك ، فاني لا أستطيع أن أقطع علاقتي بشعبي .

فقال لي :

— حسنا . ما دمت هذه رغبتك ، فلك أن تمضي الـى حيث شئت ، ولكنك ستسمع بأعمالي وشيكا وتندم على أنك لم تبق عندي !

وبعد ذلك أمرت بأن يهيأ لي بغل ، وركبت مع خادمي الامين أحمد الاغواطي الى المدينة. ولو أننا استطعنا أن نرشو رجلا معروفا بعدم النزاهة، لكان لذلك أثر وأي أثر ، ولجاء مناسبا لوظيفتي الجديدة ، ولكن ذلك كله كان يقيم خلف مشاعر الحرية التي كانت تملأ وجداني ، وخلف أحاسيس النزاهة وذكريات الالم والعذاب ، وخلف خواطري عن مستقبل جديد . لو أصبح مصطفى رئيسا للدولة ، لكنت خادمه الاول وصديقه ، وهو منصب عظيم مغر بالنسبة لشاب لا يكاد يبلغ الواحدة والعشرين من عمره . ولكن الله قدر شيئا آخر أحسن من كل ذلك . لقد قدر لي أن أرى وطني وأصدقائي ثانيـة .

الفصل الحــادي والعشرون

أحداث أخرى حتى موعد سفري

ذهبت الى قصر وزير البحرية السابق ، حيث كانت تقيم هيئة أركان الفرقة الثانية ؛ فوجدت هناك صديقي القائد كونراد . وبوخ ، الساكسي الشهم . وقد اهتم القائد كونراد بقضية مسكني ، وبما أن القصر لم يبق به محل شاغر بالنسبة لي ، وذلك لكثرة ضباط هيئة الاركان ، فقد سكنت في منزل مجاور للقصر ، ولكني كنت أتناول طعامي في القصر . فلم يكن معي عندما تركت باي تيطري اكثر من عشرة دوكات ، أخذتها من خزانة الباي الصغيرة ، ولو أني أعدتها الى الباي لقدم الي هدية ، فقد سبق له أن قدم لي ثوبا جميلا مطرزا بالذهب ، فأصبح لي بذلك ثوبين نفيسين . ولأذكر بهذه المناسبة أن خسارة كبيرة حلت بي في ذلك الاثناء ، كانت مقدمة لخسارة أكبر . فقد سرقت مني علبة عاجية مغطاة بالذهب ، قيمتها ثمانية عشر دوقا ، كنت استلمتها هدية من ضابط الميناء ، الذي توليت معالجة صهره عندما أصيب بطلقة رصاص ، فتألمت لفقدانها كثيرا ، لأنها كانت الشيء الوحيد الذي حصلت عليه بهذه الطريقة .

أصدر الجنرال داموريمون أمرا الى خياط الكتيبة التاسعة والاربعين ، فصنع لي ثيابا أروبية مختلفة ، وزودني ابنا وطني ، كونراد وغوستاف بوخ ، بما يكفيني من الالبسة ، بحيث أصبح في امكاني أن أبيع لباسي التركي وأنال منه ألفا وأربعمائة فرنك ، مع أني قد بعته بثمن رخيص جدا ، فحملت نصف هذا المبلغ الى المبعوث الدنماركي ، الذي أعطاني

حوالة مرسلة الى أحد بنوك مارسيليا . أما النصف الثاني ، وهو عبارة عن قطع ذهبية اسبانية وايطاليا ، وكذلك الكثير من القطع النقدية الجزائرية ، فقد أخذته معي الى أروبا واحتفظت به فى النهاية فى منزلي . وبالاضافة الى هذا كان فى حوزتي البغلان ، اللذان حملانا ، أنا وخادمي الاغواطي ، من بستان الباي الى مدينة الجزائر . فأهديت البغلين الى خادمي ، الذي خدمني باخلاص طيلة ثلاث سنوات وكان آنئذ يرغب فى رؤية والده الشيخ . وكنت قد قدمت له هدايا أخرى فى قصر الخزناجي أفندي ، فوفر منها حوالي مائتي دولار ، وكان للبغلين فى مسقط رأسه قيمة لم تكن لهما بالنسبة لي .

لقد أشار علي بعض الاصدقاء أن أتقدم بطلب الى السلطات الادارية للحصول على وظيفة محافظ ، لأني قبل كل شيء أتكلم العربية والتركية بطلاقة الى حد ما ، وتوصلت بمساعدة القائد كونراد الى وظيفة من هذا النوع ، ولكن الراتب كان ضئيلا جدا ، مما جعل الاصدقاء أنفسهم يشيرون علي بعدم قبول تلك الوظيفة فقررت ألا أتسرع فى هذا الامر . وكنت فى أثناء ذلك أقوم بزيارة المبعوث الدنيماركي ، الذي أحسن الي الاحسان كله ، كما كنت أزور الامير شفارتسنبيرغ فى القصبة ، وعندما وصلت أخبار ثورة جويلية فجأة ، ذهبت لزيارته فوجدته قد ترك الجزائر .

وعندما وصلت أخبار ما حدث فى باريس الى الجزائر ، أظهر الجيش الفرنسي كله سرورا كبيرا ، ورفعت الراية المثلثة الالوان تحت طلقات المدافع من جميع الحصون ، حتى نساء السكان ، اللواتي ظهرن على السطوح ، عبرن عن فرحتهن بذلك ، فكن يصفقن ويصحن « العلم الملون خير من الابيض (65) » . وبنهاية عهد الراية البيضاء انتهت قيادة الجنرال بورمون ، وحل محله الجنرال ديسبريز ، الذي كان فى رئاسة أركان الحرب سابقا ، بصورة مؤقتة الى أن وصل الجنرال كلوزيل بعد مدة قليلة.

وفي ذلك الحين رجعت ست سفن حربية ، كان على ظهرها أربعة آلاف جندي . وكانت قد توجهت الى مدينة عنابة بقيادة الجنرال داميريمون ، فعادت منها . ولم يكن الجنرال داميريمون قد سمع بعد شيئا عن ثورة جويلية . ومن ثم كانت الراية البيضاء لا تزال ترفرف على ظهر سفنه ، فاندهش لدى رؤية الراية المثلثة الالوان مرفوعة فوق المدينة كلها ، فرست مجموعة السفن خارج الميناء ولم تجرؤ على الدخول اليه ، ولكن قائد القوات البحرية وربان الميناء أرسلا فى الحال زوارق ، أخبرته بما جرى وطلبت منه ازالة راية البوربون ، وذلك ما حدث بعد قليل .

أما مدينة الجزائر نفسها فقد كانت تعيش فى ضيق كبير ، فقد كانت المواد الغذائية سيئة ، مما أدى الى موت عدد كبير من الجنود والاهالي . وكانت مشكلة تنظيم المدينة أكبر مشكلة جابهت الفرنسيين ، فقد بقيت المجهودات التي بذلوها بدون نتيجة ، فارتكبوا لذلك كثيرا من الاخطاء ، مبعثها أحيانا سوء التفاهم ، لأنهم كانوا يجهلون لغة السكان وعاداتهم وتقاليدهم ، ويعاملونهم لهذا بشدة طورا وبرفق طورا آخر . وكان ذلك سببا فى الفوضى التي عمت المدينة ، يضاف اليها ارتفاع الاسعار وانتشار المجاعة بين الكثير من السكان ، ولم يستطع التغلب عليها حتى ذلك التاجر العربي الذي أصبح آغا أفندي . وكان مصطفى باي هو السبب فى هذا الضيق والضنك ، فقد كان يحوم حول المدينة ، ويهدد بالهجوم عليها بين وقت وآخر . وكان قد منع على الجزائريين منعا باتا ، يعاقب على مخالفته بالموت ، حمل المواد الغذائية ونقلها الى المدينة ، وفشلت جميع المفاوضات ، التي أجراها معه الفرنسيون وسكان المدينة . كان هذا هو انتقام صديقي مصطفى باي لما لحقه من اهانة واذلال (66) .

ورجع عدد من الضباط ، ومن بينهم الساكسي الشهم ، الى أروبا ، فأصبحت بعض غرف القصر شاغرة ، فطلب مني القائد كونراد أن أنتقل

الى القصر ففعلت ، مع أن مسكني السابق لم يكن رديئا ، وبقيت فى القصر الى أن سافرت . وقد لي ان اعيش محنة اخرى قبل ان اغادر الجزائر . كنت قد وضعت آلاتي الجراحية ، وكانت كلها من الفضة ، وحوالة بمبلغ سبعمائة فرنك وسبعمائة فرنك نقدا ، فى خزانة ، فوجدتها ذات يوم مكسورة . وقد أخذت منها الصرة التي تحتوي على سبعمائة فرنك ، بينما تركت الحوالة والآلات الجراحية فى مكانها . وقد ثار الضباط عندما علموا بهذا الامر ، ووقعت الشبهة حول زنجيين وعربي ، وقد سبق لي أن أحسنت الى هذا الاخير عدة مرات ، فأراد بعض الضباط ، بعد اليأس من العثور على المال ، معاقبة هؤلاء ، ولكني تنازلت عن حقي فى ذلك المال ، فقد كنت أعرف أنه ضاع ولن يعود . وكم اندهش الضباط عندما وجدوني فى غير حاجة الى تعزيتهم ، فقد علمني البعد عن الاصدقاء أن أعزي نفسي بنفسي ، كل ما فى الامر أني أحسست بما فقدت ، ولكني لم أعلن أسفي عليه .

وكانت فكرة العودة الى وطني تعذبني ليل نهار ، ولم تدع لي شيئا من الراحة ، فقررت فى آخر الامر مغادرة الجزائر ، فجمع لي الضباط مبلغا من المال ، قدمه الي القائد كونراد بكلمات ، كان لها أعمق الاثر فى نفسي ، فقبلتها ، وحصل لي أيضا على رخصة من الجنرال كلوزيل ، تسمح لي بالسفر على حساب الحكومة الفرنسية . وحظيت أيضا بمساعدة قنصل فرنسا السابق فى الجزائر السيد دوفال (67) والمبعوث الدنيماركي السيد كارسلينزن ، الذين قدما لي الوثائق والتوصيات اللازمة ، فركبت السفينة الفرنسية « ليبيو » مساء يوم 16 سبتمبر سنة 1830 .

عندما تحركت السفينة كانت الشمس تلقي أشعة باهتة على قمم الاطلس الشامخة ، وكانت النسمات المسائية الرقيقة تغمر الطبيعة اللاهثة من حر

النهار ، بينما الامواج الناعمة تتكسر على جنبات السفينة ، وهي تمخر العباب بهدوء . ووقفت على ظهر السفينة ، فلاحت لي المدينة وضواحيها الجميلة ، وقد ابتلعتها أنوار الشفق . واستعدت فى ذهني مرة أخرى كل ما جرى لي فيها ... كل ما عشته وخبرته فيها ، وغرقت فى أفكاري وذكرياتي مدة طويلة . ولما عدت الى نفسي ، وجدت الليل قد أسدل ستارا كثيفا على كل ما حولي وأخفاه عن ناظري .

1) حذفت هنا فصلا ، تحدث فيه بفايفر عن احد رفاقه واستعرض قصته والظروف التي اخذ فيها اسيرا .

2) في حديثي عن الحملة الفرنسية سأتعرض لتاريخ الجزائر اكثر مما العرض لتاريخ الفرنسيين ولن اشير الى ما هو معروف من الجانب الفرنسي الا اذا كان له تاثير على اوضاع الدولة الجزائرية الداخلية او كانت اسباب الاحداث تنبعث من داخل الجزائر نفسها ، ولهذا لا ينبغي ان ينتظر مني تاريخ كامل للحملة الفرنسية . (المؤلف)

3) ذكر الحاج احمد افندي ان ذلك كان يوم 21 مارس سنة 1828 ، فهو اذن يتفق مع بفايفر في السنة التي وقعت فيها حادثة المروحة ، وذلك خلافا لما هو معروف في المصادر الفرنسية من انها وقعت في 27 افريل سنة 1827 ، انظر ، كيف دخل الفرنسيون الجزائر ، لاحمد الجزائري ، بيروت 1962 ، ص 21 وكذلك المجلة الاسيوية
la prise d'Alger racontée par un Algérien, Revue Asiatique, T. 20, p. 321 F.
وحمدان خوجة ، Hamdan Khodja, le miroir, Paris 1833, p. 167.

4) لست ادري ما علاقة هذه الاشياء بعضها ببعض ، واذا كان لا يجوز للمرء ان يصدق كل ما يسمعه من الجانب الجزائري ، فاني لم استطع انا ايضا التوصل الى معرفة حقيقة ذلك من الجانب الفرنسي ، حتى من باكري نفسه ، الذي اتيح لي فيما بعد ان اقابله واتحدث معه . فعندما رجوته ان يوضح لي حقيقة الامر تملص من سؤالي وحاول ان يغير مجرى الحديث ، وقد بدا عليه ان طرق هذا الموضوع لا يروق له . الا انه مما لاشك فيه ان الداي كان يشكو ابدا من ظلم ملك فرنسا وتآمر مبعوثه باكري ضده . ويجب ان اذكر بهذا الصدد ان الخزناجي افندي ، الذي كان الشعب يحبه لكرمه وتمكنه من اللغة العربية اشد الحب ، كان يحقد على المبعوث الفرنسي كل الحقد ، ويميل بدوره الى القضاء على اليهودي والاستيلاء على امواله وممتلكاته . وكان باكري خاخام الطائفة اليهودية في الجزائر ، وعلى هذا الاساس كان يقوم بجمع الضرائب من اليهود وتسليمها الى الخزناجي بين وقت وآخر . وبذلك كان مرؤوسا للداي من جهة ، ولكنه من جهة اخرى كان ينوب عن فرنسا في التفاوض مع الحكومة الجزائرية ، ويتولى تسيير البضائع اليها ، فقد كان اذن يخدم الداي وفرنسا في الوقت نفسه . وبهذا الاعتبار فان اتهام الداي لباكري بالتعامل مع أعدائه لم يكن دون سبب . ومن ثم صادر الداي أموال باكري ، وحبسه هو وأهله ، فمكث في السجن مدة ست سنوات الى أن دخل الفرنسيون الجزائر سنة 1830 . (المؤلف)

5) الواقع أن حادثة المروحة لها سابقة مماثلة في تاريخ العلاقات الجزائرية الفرنسية ، فقد روى الرحالة الانجليزي الدكتور شو ، الذي زار الجزائر في أوائل القرن الثامن عشر وأقام بها حوالي اثنتى عشرة سنة ، أن أحد القناصل الفرنسيين أساء الادب في حضرة الداي ، فقال له الداي : « ان أمي كانت تبيع أكارع الغنم وأبي يبيع ألسنة البقر ، ولكنهما كانا يخجلان من ان يعرضا لسانا حقيرا كلسانك للبيع . »

6) ورد جواب القنصل الفرنسي عند حمدان خوجة على الصورة التالية : « ان حكومتي لا تتنازل لاجابة رجل مثلك . » ، أنظر Le miroir, p. 167 وقد ذكر أحمد افندي (المرجع السابق ، ص 21 ، والمجلة الاسيوية Journal Asiatique p. 321 أن دوفال وضع يده فوق سيفه ، غير أن الضباط الذين حضروا الاجتماع ارتموا عليه وجردوه من سلاحه ، فهم الداي بقتله ، ولكن ابراهيم داي نبهه الى أن قتل المستأمن مخالف للقانون ،

فاكتفى بضربه وطرده من المجلس . انظر ايضا ما قاله الداي نفسه عن ظروف الحادثة والصورة التي وقعت بها في كتاب J.T. Merle, la prise d'Alger, Paris 1930, p. 151

7) فنصل سردينيا في الجزائر هولويجي داتيلي ديللا طوره (انظر مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، عدد 2 ، ص 86 — 94) ، وقد ذكر احمد افندي (المرجع السابق ، ص 21 — 22 ، المجلة الاسيوية ص 321) ان خمس سفن فرنسية توقفت بالميناء يوم 20 ماي 1828 وطلبت من القنصل ان يصعد اليها ، وبناء على هذا فان القنصل الفرنسي لم يغادر الجزائر في اليوم نفسه ، وانما تركها فيما بعد ، ولعل بفايفر يقصد انه صعد الى السفينة الفرنسية وبقي بها الى ان عاد الى فرنسا ، وترك الفرنسيون الجزائر ، حسب قول احمد افندي في 28 جوان 1828 .

8) تحدث فاغنر عن العلاقات الجزائرية الفرنسية ، انظر ج 2 ص 151
M. Wagner, Reisen, 1842

9) تحدث احمد افندي عن خمس سفن سيرت من فرنسا لمحاصرة الجزائر والاقامة خارج الميناء ، انظر المرجع السابق ، ص 23 »

10) اشار احمد افندي (ص 23) الى السفن التي امر الداي بتجهيزها يوم 28 بولية 1828 ، دون ان يحدد عددها ، وكانت المعركة البحرية يوم 23 سبتمبر 1828 ، ويكتفي الحاج احمد في وصفه للمعركة بقوله « وكان اهل الجزائر حاضرين تلك الوقعة يستغيثون بالله ويرفعون أصواتهم بالدعاء والنصر ، فقاتلوا قتالا شديدا ، فكانت الهزيمة على العدو وركن الى الفرار ! »

11) كان القبطان عمر ، فيما ذكره بفايفر (ص 66 — 67) مارقا انجليزيا ، يحسن اللغة الايطالية والانجليزية والتركية والعربية بالاضافة الى قليل من الهولاندية ، وكان قد حضر الى الجزائر وأقام بها وتزوج ، وكان له عدد من الاطفال .

12) هناك تفاصيل كثيرة عن هذه الحادثة في مقال كتبه . روبا ، انظر N. Robin, Notes historiques sur la Grande Kabylie, Revue Afr., 1876, p. 43 f.

13) يسكن القبائل ، ويطلق عليهم الاروبيون عادة اسم البدو ، بينما احتار بعضهم الآخر في اصلهم ، جبال الاطلس على بعد مائة ساعة ، وعددهم غير معروف الآن ، حتى الداي نفسه لم يكن يعرف ذلك . ويحكمهم شيخ ، وهم لا يعترفون بحكم غير حكمه هو ، ولا يهتمون لا بالداي ولا بالباي . والحق انهم لا يشبهون البدو الرحل ، فهم يقيمون في هذه المنطقة ويعيشون من لحوم الصيد وقطعان الماشية وحقول الحنطة التي يزرعونها في سفوح جبالهم ، والقبائلي رجل حيوي ماهر ، يكتفي بامرأة واحدة ، يكن لها الاحترام والاجلال ، ويحيا حياة متوسطة ، ويمتاز بالقسوة على عدوه ، ولكنه يقري الضيف الغريب الذي يصل طريقه في جباله ، ويمن أن تقال أشياء كثيرة عنه . (المؤلف)

14) ذكر روبان (المرجع السابق ، ص 43 وما بعدها) أن عرب يسر وقبائل فليسة قد هاجموا الفرنسيين بقيادة شيخ برج منايل التركي . أما اسماء الزورقين فهما L'Iphigénie et la Duchesse

15) ورد في مقال روبان (المرجع السابق) ان مارنان قد انقذ من طرف عربي من يسر ، يدعى احمد بن دحمان ، ويسكن قربة توارة ، وان الداي انعم على هذا العربي بمبلغ من المال عندما حمل اليه البحار الفرنسي .

16) هذا الرسول هو عبد الرحمن افندي ، انظر الحاج احمد افندي ، ص 26 .

17) تحدث الحاج احمد افندي عن وصول رسول مصر ، ولكنه لم يشر الى اي شيء مما ذكره بعابقر هاهنا ، انظر الحاج احمد افندي ، ص 25 .

18) يقصد المؤلف السفينة La Provence ، التي كان على ظهرها القائد لابروتونيير La Bretonnière ، قائد عمليات الحصار على الشواطيء الجزائرية ، وقد اشار الحاج احمد افندي (ص 26) الى هذه الحادثة . ويذكر اسكير G. Esquer, La Prise d'Alger, Paris, 1929, p. 108 f. ان لابروتونيير قد صعد الى القصبة يوم 31 جويلية سنة 1829 وترك الجزائر في 3 وات من السنة نفسها .

19) في المجلة الافريقية Revue Afr., 1877, p. 409 وصف للحديث الذي دار بين الداي وقائد السفينة الفرنسية .

20) لا أدري ما اذا كان التحدي او صعوبة تغيير اتجاه السفينة هو الذي حمل القائد على ارتكاب خطأ الاقتراب من المواقع الجزائرية ، الا اني أعتقد ان الامر الاول هو السبب ، لانه لم يكن من المستحيل ، على الرغم من ان الرياح لم تكن مواتية ، ان يرجع القائد الفرنسي أو يتوقف . (المؤلف)

21) انظر المجلة الافريقية ، المرجع السابق ، ص 431 .

22) يؤكد حمدان خوجة ، ص 175 ، تآمر الخزناجي على حياة يحي آغا .

23) مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها اثنى عشر الف نسمة ، وتبعد عن الجزائر بحوالي اثنتي عشرة ساعة ، وقد حطمتها الزلازل في السنة التي أسرت فيها (1825) ، وأعيد بناؤها ثم هدمت في السنة التالية ، حين أصيبت بزلزال شديد ، اهتزت له العاصمة الجزائرية نفسها (المؤلف) .

24) أشار حمدان خوجة ، ص 174 ، الى الرسائل التي وجهها الداي الى العرب والقبائل .

25) يقصد المؤلف هنا السفينتين Silène, l'Aventure ، وكان يقود الاولى D'Assigny والثانية Bruat ، وقد وقعت هذه الحادثة فيما بين 21 أوت و 10 ديسمبر سنة 1829 ، انظر روبان ، المرجع السابق ، ص 44 .

26) يذكر الحاج أحمد أفندي ، ص 27 ، أن ذلك وقع في محل يدعى تسرى ، ويقع غرب الجزائر ، وهذا خطا ، فوادي يسر يقع في شرق الجزائر .

27) لم اعثر على واد بهذا الاسم ، ولعل المؤلف يقصد وادي الاربعاء ، الذي اشارت اليه المراجع الاخرى ، انظر روبان ، المرجع السابق ، ص 44 .

28) يقول روبان ، المرجع السابق ، ص 45 ، ان الداي قد وجه ، عندما سمع بالحادثة ، قائد القعطان ، ولكن وادي يسر كان حاملا ، فلم يستطع الاتصال بابن عمر مصطفى ، قائد وطن يسر ، الا بعد ثلاثة ايام .

29) قاد مصطفى بن عمر الاسرى الى حوش ابن والي ، غير ان المكان لم يسعهم ، فوزعوا على قرى بني يسر ، فنقل بعضهم الى قرية اولاد بونوة ، ومازر ، ووادي الاربعاء ، وارسل بعضهم الاخر الى القراف ، وتوارة ، واهل الواد ، واولاد حمودة .

30) يذكر روبان ، المرجع السابق ، ص 45 ، ان احد الجنود قتل امراة رجل يدعى علال التركي ، وجرح زوجها نفسه ، ثم هرب ، فانتقم الاهالي من الاسرى ، وكان عددهم 110 ، وقتلوهم في حوش ابن والي .

31) يقول schnargenberg في كتابه Ruckblicke (ص 132) ان الداي قد عامل ملاحي السفينتين الفرنسيتين معاملة انسانية الى ان تم تحريرهم عند توقيع صك الاستسلام . ولعله من المفيد ان نشير هنا الى ان المانيا ، يدعى Ludwig Rellstab قد كتب قصة طويلة بعنوان « الجزائر وباريس سنة 1830 » ، عالج فيها حادثة السفينتين الفرنسيتين ، ونشرها عام 1846 .

32) في اشارة بفايفر هذه دليل على ان الشعب الجزائري كان آنئذ يشعر بكيانه المستقل وذاتيته المنفصلة عن حاكميه من الاتراك .

33) وقعت هذه المؤامرة على حياة الداي ، فيما ذكره الحاج أحمد افندي ، ص 28 ، في 30 ماي سنة 1830 .

34) ذكر الحاج أحمد أفندي ، المرجع السابق ، ص 28 ، أسماء هؤلاء ، وعددهم اربعة فقط ، وهم قره مصطفى خوجة ، وكركور ابراهيم ، ودلي امام ، ومحمد جاويش ، واشار ايضا الى التوتر الذي ساد العلاقة بين الداي والانكشارية .

35) وصل الاسطول الفرنسي الى شواطيء الجزائر يوم 13 جوان 1830 ، واتجه في الساعة الثامنة نحو الغرب ، انظر ، اسكير ، المرجع السابق ، ص 285 .

36) انظر الحاج احمد أفندي ، ص 29 .

37) يقول شفارتسنبيرغ Schwarzenberg, Rückblicke, 1837, p. 142-43
« كان العرب يندفعون بجيادهم نحونا ، ويتوقفون في مكان قريب منا ، وينحنون فوق اعناق جيادهم ، ويطلقون نيران بنادقهم ومسدساتهم ، ثم يولون الادبار بالسرعة التي اقبلوا بها . وكان قناصتهم يزحفون فوق بطونهم نحونا ، فكانت طلقات قناصتهم المسددة باحكام تصيب طلائعنا قبل أن نتنبه اليهم ، وكانت هذه العمليات تكلفنا يوميا أكثر من مائة رجل . »

38) كانت الدولة الجزائرية ، باستثناء بلاد القبائل واهالي منطقة متيجة ، الذين كان يحكمهم من بعضهم سبعة قواد ، وهم من الفلاحين العرب ، وقد اطلق عليهم اسم المور خطا ، ويخضعون مباشرة للاغا افندي والخوجة افندي ـ كانت مقسمة الى ثلاث ولايات ، هي ولاية تيطري ، وقسنطينة ، ووهران . وكان الداي هو الذي يختار البايات ويعزلهم او ينقلهم حسب رغبته ، الا ان في مستطاع هؤلاء بدورهم ان ينهبوا العرب المساكين ، ويضعوا السكين في رقابهم ، اللهم الا اذا كانت الضرائب ، التي ياخذونها منهم للداي ، باهضة جدا ، وللبايات خلفاء ينوبون عنهم في جمع الضرائب (المؤلف) .

39) الميزابيون او بنو ميزاب يسكنون منطق ميزاب ، التي تمتد الى الصحراء ، وتكون في بعض الاماكن جزءا منها ، ويشتغلون بالتجارة ، الا انهم يتاجرون في الغالب بالعبيد ، ورئيسهم هو امين الميزابيين . اما في مدينة الجزائر نفسها فان لهم ، مكافاة لهم على هجومهم على قلعة الامبراطور وقتلهم للحامية ، التي وضعها شارل الخامس فيها ، امتيازات هامة ، تخول لهم دون غيرهم انشاء الحمامات العامة ، والرحي ، وكذلك الاحتفاظ بما تدره عليهم المهن التي يمارسونها من ارباح . والعرب والاتراك يستخفون بهم ولا يعترفون باسلامهم ، ومنظرهم غير مسر ، وفي طباعهم غلظة ، وجفوة ، وقلة العناية بالنظافة (المؤلف) .

40) تتحدث المصادر عن هروب العرب والقبائل من معركة اسطى والي ، وهم لم يجتمعوا في راي محمد بن عبد القادر ، تحفة الزائر ، ص 132 ، الا للسلب والنهب ، انظر ايضا اسكير ، المرجع السابق ، ص 310 ، وغودان
M. A. Gaudin, La conquête d'Alger, 1864, p. 36
وميشيل A. Michiels, Revue Afr., 1876, p. 118.

41) يصف شفارتسنبيرغ (ص 143 ـ 144) معركة اسطى والي على الصورة التالية :
« في صبيحة 19 جوان استعد الجيش الجزائري ، بعد ان ادى المسلمون صلاة الصبح ، لخوض المعركة التي قررها الآغا ، وبدأ الهجوم عندما انطلقت نيران مدفعين ثقيلين ، يوجدان في وسط المعسكر . وكان العرب بقيادة باي قسنطينة وباي وهران يشكلون الميمنة والميسرة ، وكان فرسانهم يطوفون بمعسكرنا . اما الاتراك ، وكان عددهم يتراوح بين الثمانية والتسعة آلاف ، يشكلون القلب . وكان الجيش الجزائري يكون نصف دائرة تتعدى المكان الذي ينتهي عنده الموقع الفرنسي . وتقدم الجنود الجزائريين للهجوم ، وهم يهتفون الله أكبر ، واجتازوا الجدول الذي كان يفصلهم عن احدى الكتائب الفرنسية . وكان الاتراك ، وأغلبهم من البحارة، يهاجمون الفرق الفرنسية ، وسيوفهم بين اسنانهم ومسدساتهم بأيديهم ، وكانهم يتقدمون للاستيلاء على سفينة معادية ، فلم تستطع كتيبتان فرنسيتان ، عند اللقاء الاول ، الوقوف امام هذا الهجوم العنيف ، وسقط افرادها تحت ضربات السيوف . ولكن الفرنسيين تقدموا الى اللقاء الثاني بالحراب ، واندفعوا نحو المهاجمين ، فاضطربت صفوف الاتراك وتراجعوا ، فكر الفرسان خلفهم ودحورهم . وتبع انهزام الاتراك هروب العرب من الجناحين ، وانتهت المعركة بعد هجوم عام بالحراب ، قام به الجيش الفرنسي ، فوصلنا بعد الظهر الى معسكر أسطى والي ، الذي لم يستطع الجزائريون ازالته عندما انهزمت فلولهم ، فاستولى الفرنسيون على المعسكر والسهل بأكمله . »

42) من الحقائق المعروفة ان الجندي التركي ميال بطبعه الى الراحة في البيت مثلما هو الامر في رأض المعركة . ولهذا يأخذ كل جندي أسلحته وثيابه وفراشه ، ويتزود الى ذلك بما يكفيه من التبغ والبن ، بحيث ان بعضهم يحمل معه عشرة أرطال من القهوة المطحونة ، وثلاثين أو خمسين رطلا من التبغ في أكياس من جلد . وبما أنهم لا يستعملون الاجربة عادة ، ولم

يكونوا بطيفون حمل اشياءهم على ظهورهم ، فقد وضعت الحكومة عددا كافيا من الجمال والبغال تحت تصرفهم لحمل هذه الاشياء خلفهم (المؤلف) .

43) لقد أتيح لي أن اطلع على رسالة منها ، كتبها المفتي مصطفى ووجهها الى كل من القبائل والعرب ، واهم ما جاء فيها على التقريب قوله : « هلموا الينا يا ابناء المسلمين وخلفاء الرسول ! اننا ندعوكم بصفتنا عباد الله وخدم رسوله ، وبصفتنا آباء لكم ، الى الجهاد ضد الملاعين . لسوف ننتصر عليهم ، وبعد ذلك يحق لكم أن تقتسموا الغنائم فيما بينكم . اما من استشهد منكم فالجنة مثواه ، ولن تنتظركم فيها آلاف الحوريات فحسب ، بل انكم ستجدون كل ما تصبوا اليه نفوسكم من نعيم وخلود . فلبوا الدعوة ، يا ابناء المسلمين ! ان مثل هذا النعيم ومثل هذا الحبور ينتظرانكم في ارض المعركة . اذا كنتم مسلمين حقا ، فهلموا وتنعموا بها ! ومن تخلف منكم فهو ملعون ، وسيكون نصيبه جهنم وبئس المصير » (المؤلف .)

44) ذكر حمدان خوجة ، المرجع السابق ، ص 190 ، أن الخزناجي افندي كان يريد الاستيلاء على السلطة ، وأن نشاطه قد ازداد بمجرد ان بدا زحف الفرنسيين نحو هذه القلعة. غير ان ما ذكره بفايفر عن سيده الخزناجي لا يدل على شيء من هذا .

45) كان أغلبهن من اللواتي كن يعشن حياة فاسقة داعرة ، وقد اردن الآن التكفير عن ذنوبهن أمام الله والناس ، فمضين مسرعات الى ارض المعركة ، وعلى ظهورهن قرب الماء ليطفئن غلة المسلمين المقاتلين ، ويمسحن بمناديلهن عرق اجبنتهم ، ويثرن فيهم الحماس الى الاستمرار في القتال ، وخوض المعركة بشجاعة وبسالة . الا أنه كان بينهن نساء وفتيات شريفات ، دفعهن حبهن لآبائهن وأزواجهن وخوفهن عليهم الى اللحاق بهم في ارض المعركة ، وساذكر بعد حين مثلا على هذه التضحية النبيلة (المؤلف) .

46) يجب أن أذكر هنا أن عدد البغايا في مدينة الجزائر كان ضخما ، وأنهن لعبن دورا كبيرا فيها . وهن اما بنات أبوين فقيرين أو فتيات طردهن أزواجهن أن هربن من سوء معاملتهم لهن . وكان بعضهن يعشن بمفردهن ، بينما يعش بعضهن الآخر مع أخريات كثيرات . وكانت الحكومة قد سمحت بفتح المباغي العامة ، مع أن ذلك كان ممنوعا في تركيا ، ووضعت قائمة بأسماء البغايا . ومن ثم كانت تغري المجندين الجدد من الاتراك بالحضور الى الجزائر ، حيث يتاح لهم أن يتمتعوا بحياة داعرة لا رادع لها ولا وازع . وكانت البغايا من جهة أخرى ملزمات بدفع ضرائب باهضة للحكومة ، وكان المزوار يقوم بجمع الضرائب ، كما تتولى الشرطة تدبير امورهن . وقد وجد الجلاد ، وهو انسان مجرم فاتك شرير ، أسهل وسيلة للوصول الى ثروة طائلة ، اذ أنه لم يكن مسؤولا أمام أي شخص بالنسبة للبغايا . وكان عليهن أن يدفعن للحكومة سنويا ألفي دولار ، وللمشرف خمسة أو ستة آلاف دولار ، وهذا المشرف نفسه هو الذي يأمر بضربهن ضربا مبرحا ، ان هن تأخرن عن تقديم هدينهن الشهرية له . وكثيرا ما كن يفقدن أنفاسهن تحت ضربات السياط ، التي كانت تتراوح بين الخمسمائة والسبعمائة، وليس هناك فوق الارض قضاء يعاقب المذنب بهذا المقدار (المؤلف) .

47) يذكر اسكير Esquer ، المرجع السابق ، 344 ، أن ضرب الجزائر من جهة البحر قد بدأ يوم 3 جويلية ، وانظر ايضا الحاج أحمد افندي ، ص 30 – 31 .

48) وقع الانفجار في قلعة الامبراطور يوم 4 جويلية حوالي الساعة العاشرة صباحا ، انظر ميرل Merle ، ص 157 وما بعدها ، وبدأ ضربها من طرف الفرنسيين حوالي الساعة الرابعة صباحا ، انظر شونبيرغ A.v. Schoenberg, Blicke auf Algier, Kopenhagen

49) انظر اسكير Esquer ، ص 349 وما بعدها ، وحمدان خوجة ، ص 191 .

50) انظر حمدان خوجة ، ص 193 – 194 .

51) يرى شفارتسنبيرغ (ص 167) ان عدم مقاومة الداي لنزول الفرنسيين في شبه جزيرة سيدي فرج ، وتهاونه في تحصين مرتفع « بوجرة » والدفاع عنه بقوة ، يضاف الى هذا عدم الجدية التي اتسمت بها هجومات العرب والاتراك ، ثم اقتصار وسائل الدفاع عن قلعة الامبراطور على المدافع – هذا كله هو الذي جعل عملية الاحتلال تتم بهذه السهولة .

52) انظر ما قاله حمدان خوجة ، ص 187 وما بعدها ، عن هذا المفتي .

53) انظر غودان Gaudin ، المرجع السابق ، ص 48 .

54) لم تشر المراجع التي بين يدي الى هذه المآمرة !

55) انظر ميرل Merle ، المرجع السابق ، ص 112 .

56) فريدريك شفارتسنبيرغ F. Schwarzenberg ، امير نمساوي ، التحق ببورمون وشارك في عدة معارك . وبعد عودته الى بلاده نشر كتابا بعنوان Rueckblicke auf Algier سنة 1837 .

57) ذكر شونبيرغ Schönberg ، المرجع السابق ، ص 55 ، ان العزاب من الاتراك قد غادروا ميناء الجزائر يوم 10 جويلية 1830 ، اما شفارتسنبيرغ Schwarzenberg ص 183 ، فيقول انه لم يسافر من الانكشاريين الى تركيا سوى حوالي الف وخمسمائة ، فانضم من بقي منهم الى البايات وجموع العرب .

58) انظر اسماء اعضاء المجلس في اسكير Esquer ، المرجع السابق ، ص 419 .

59) يتكون سكان الجزائر من عرب البلد والكولة أوغلي (أبناء العبيد – الكراغلة) ، ويقول عرب البلد (وقد سموا بالمور خطأ) أنهم كانوا في أيام خير الدين باشا اقلة ، الا ان عددهم ارتفع مؤخرا بعد اختلاطهم بالاتراك . والمعروف أن الاتراك لا يجلبون النساء معهم الى الجزائر، وانما يتزوجون فيها ببنات العرب ، ويطلق على أولادهم اسم الكوله أوغلي ، ولكن أولادهم يعتبرون عربا ثانية (المؤلف) .

60) لعل المؤلف يقصد نبؤة مولاي الطيب ، المرابط المعروف ، انظر H.v. Maltzan, Drei Jahre im Nordwesten von Afrika, Leipzig 1863, t. l.p. 265.

61) توفي ابن بورمون يوم 7 جويلية 1830 ، انظر ميرل Merle ، ص 156 .

62) سافر الداي ، فيما ذكره شفارتسنبيرغ (ص 191) يوم 10 جويلية ، وتتالف حاشيته من 58 رجلا و 52 امرأة . ويقول الامير النمساوي ان وداعه للجزائر كان مؤثرا ، فقد طلب العجزة أن يحملوا الى الميناء ليقبلوا يده ، وكان الشيوخ من الانكشاريين يبكون كالاطفال . أما الحضر واليهود فكان يبدو عليهم الارتياح لسفره ، لانه كان يعني نهاية الحكم التركي

من جهة ، ولانهم كانوا من جهة اخرى ياملون ان يصلوا انفسهم الى السلطة . وكان بورمون قد زاره قبل سفره بيومين ردا على زيارته له ، فشكره الداي على سلوكه القويم وقال له : « لقد كنت مقتنعا بعدالة قضيتي ، ولكن ما قضى الله تعالى به يدل على انني كنت مخطئا ، ولذلك غلبت على امري . ان الناس قد الصقوا بي صفة الطاغية ، غير ان لي ما يعزيني عن هذا ، وهو اني حاولت ان افعل الخير قدر استطاعتي ، وفي امكان فقراء هـذه المدينة ان يؤكدوا دعواي . اعرف انك قد فقدت ابنا لك ، واني لاشاركك في مصابك ، وقد كلفتني هذه الحرب انا الآخر ابن اخ (أو اخت ؟) لي ، كنت احبه حبي لفلذة كبدي . انها ارادة الله . بودي الآن ان اسافر الى نابلي ، وسوف لن يتخلى عني ملك فرنسا ، فاذا ما وقعت في ضيق أو احتجت الى حماية ، فاني ساتوجه اليه في ثقة ، فهو رجل كريم ، وسوف لن يتخلى عني . » ، انظر شفارتسنبيرغ ، ص 190 — 191 .

63) انظر قضية خيانة بورمون في ميرل Merle ، المقدمة ، ص 43 .

64) انظر مسالة تعيين حمدان ابن امين السكة في حمدان خوجة ، 212 وما بعدها .

65) يبدو ان بفايفر يعبر هنا عن فكرته الخاصة لا عن فكرة الجزائريات اللواتي وقفن الى جانب الرجال في المعركة بشهادته هو نفسه .

66) أعلن بومزراق الحرب على فرنسا يوم 21 اوت 1830 ، انظر ميشيل ، المجلة الافريقية (1876) ، ص 88 .

67) لاشك ان هذا دوفال آخر ، فالمعروف ان القنصل السابق دوفال توفي في 20 اوت 1829 ، انظر ميرل Merle ، ص 150 .

فهـــرس

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائـــر